HARLEQUIN

روايات احلام

المطلوب امرأة!

سارة كريفن

WWW.ELROMANCIA.COM
مرمورية

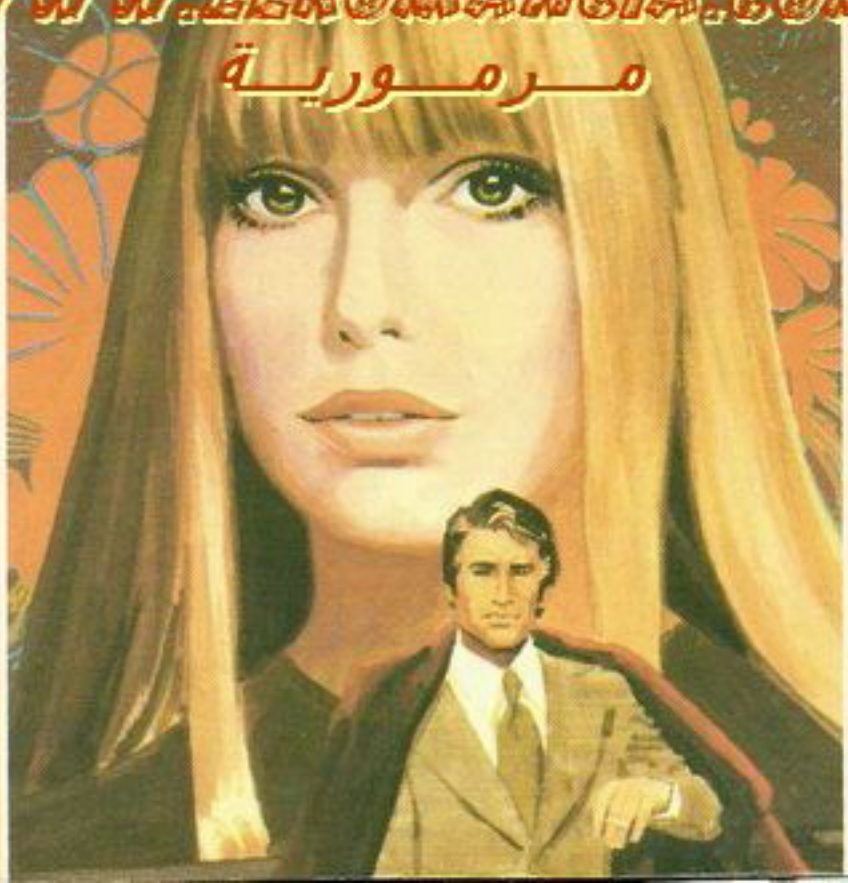

المطلوب امرأة!

كان الكونت جوليو فالكون حلم كل امرأة.. وقد مدّ يد المساعدة لـ «لوسي» عندما احتاجت، وتوقعت أن يطلب منها شيئاً بالمقابل..

كانت لوسي مدينة له... والكونت يريد مربية لأولاد شقيقته.. فقط! فلماذا تشعر أنها أخطأت في قبولها عرضه؟ ولِمَ هذا الإحساس بأنها اختارت المكان غير المناسب والتوقيت غير المناسب؟

قد يكون خطؤك الوحيد يا لوسي هو في بقائك قريبة من هذا الرجل!

ساره كريڤن

بدأت ساره كريڤن بالكتابة لشركة «ميلز آند بونز» سنة ١٩٧٥، وقد باعت منذ ذلك الحين ما يناهز السبعة عشرة مليون نسخة من كتبها في أنحاء العالم. وهي تهوى إلى جانب الكتابة، مشاهدة الأفلام والاستماع إلى الموسيقى والطهو، كذلك تناول الوجبات اللذيذة في مطاعم فخمة. تعيش ساره كريڤن الآن في مدينة «سومرسيت» وهي متمرّسة في متابعة برامج المسابقات التلفزيونية والمشاركة فيها.

١ ـ امرأة ضد النار

ـ لوسي، انظري إلى ذلك الرجل على الطاولة الأخيرة، هل رأيت يوماً رجلاً رائع الجمال مثله؟

أحست لوسي وينترز بنفسها تذوي من الداخل، بينما همسة نينا المرتفعة تصل إلى أذنيها وإلى آذان كل الجالسين حولهما في مقهى الرصيف.

أخفضت رأسها تنظر إلى الدليل الذي تتفحصه، وهي تتمنى لو تستطيع التسلق إلى داخله، وإقفال الغلاف وراءها.

أملها الوحيد أن يكون «أدونيس» المجهول هذا إما أصمّ أو أنه لا يعرف الإنكليزية. لكن، نظرة سريعة محرجة نحوه، قالت لها على الفور إن أملها خاب.

ونظرت لوسي من جديد نحو أدونيس هذا فإذا بها ترى وجهاً كان يمكن لمايكل أنجلو أن ينحته من البرونز، محفوراً في خطوط ازدراء كامل، وأنف أرستقراطي، كان متمماً لفم صارم، وذقن قوي بارز بعجرفة وصاحبه يشير إلى الساقي ليطلب فاتورته. ثم استدار ليلتقط حقيبة أوراق جلدية من كرسي مجاور، وللحظة التقت عيناه الباردتان، بعيني لوسي.

يقال إن الجليد يمكن حرقه. وأحست لوسي وكأنها لسعت من الرأس حتى القدم. ثم تمتمت بإلحاح: «نينا، لأجل السماء، لقد سمعك».

لم تكترث نينا: «حسن جداً، وماذا لو سمع، ها هو يرحل».

ومالت إلى الخلف بكرسيها، تتنهد: «يا إلهي، انظري إلى طريقة

تحرك جسمه».

أجفلت لوسي لجرأة كلام رفيقتها نينا وراقبت الطيف الطويل يتراجع.

أجل، إنه جميل المظهر، ولو أن شعره الأسود المتموج طويل، كان يتحرك برشاقة غير مكترثة، وبطريقة غريزية. لكن، كان واضحاً عدم اكتراثه باهتمام نينا الوقح، ومن يلومه؟

إنه رجل لا يقاوم.

وأضافت لوسي: «كما أظن أن هناك أكثر من هذا بالنسبة له، إنه يرتدي بذلة من أفضل التصاميم، على الأرجح لآرماني».

ضحكت نينا ضحكة منخفضة، وعادت لوسي إلى الدليل.

ووجدت نفسها، وليس للمرة الأولى منذ وصولهما قبل ثمانية وأربعين ساعة، تتساءل إذا فعلت ما هو صواب.

كانت الموافقة على مشاركة الڤيلا في توسكانيا مع ثلاث فتيات، هن تقريباً غريبات عنها، مجرد رمية في الظلام. لكنها كانت تتمنى أن يكون لديها فرصة للتغيير الكامل في حياتها.

حين سمعت لوسي نينا، التي تعمل في قسم الحسابات، تتفجع لواقع أن الفتاة الرابعة في مشروعهن قد خذلتهن في آخر لحظة، سمعت نفسها بذهول تقول: «سأذهب معكن».

ثلاثة أسابيع من شمس توسكانيا، لا يمكن التفكير بها وهي مع خطيبها فيليب. فهو يحب العطلات التي فيها حركة، كركوب الأمواج البيضاء، والتوجه شرقاً إلى اسكتلندة، وتسلق الصخور في ويلز، ولطالما أخفت لوسي امتعاضها وحاولت الانضمام إليه.

ربما توتره الدائم معها ونفاد صبره، خلال آخر رحلة لهما معاً، جعلاها تعي أن علاقتهما يشوبها الكثير. وفكرت بأن الحب يجعل المرء أعمى، وحاولت عدم التطلع إلى أثر خاتم الخطوبة في إصبعها.

وحين أخبرها فيليب فجأة، أن هناك امرأة غيرها في حياته أحست

بالانهيار. لكنها أدركت أن الدلائل كانت تشير إلى ذلك.

راقبته مخدرة الأحاسيس وهو يوضب ثيابه في حقيبته بحدة، وها هي الآن مضطرة للاختيار مجدداً، إما البقاء في الشقة مع كل ذكرياتها وإما إيجاد مكان جديد لها.

كانت شقيقتها جان قد قالت لها ووجهها الجميل يتغضن قلقاً:

ـ بإمكانك التخييم معنا لفترة، إلى أن تجدي مكاناً تسكنين فيه.

لطالما أحبت لوسي شقيقتها جان وصهرها لاعب الركبي الضخم وابني أختها الملطخين دائماً بالوحل، لكنها كانت تعرف أن السكن المؤقت معهما ليس هو الحل.

وحاولت التبسم: «هذا أحد الأسباب لأخذي هذه العطلة، كي أفكر، وأنظم حياتي. يلزمني وقت لأتكيف مع الظروف الجديدة».

رشت جان السكر فوق الفاكهة أمامها: «لكن، هل هذه هي الطريقة الصحيحة؟ مشاركة منزل مع فتاة بالكاد تعرفينها، واثنتين من صديقاتها؟».

ثم هزت رأسها: «يبدو لي أن هذا سيؤدي إلى كارثة».

حاولت لوسي الرد بمرح: «لقد رأيت صوراً لڤيلا دانتي التي سنقصدها وبدت لي رائعة، إضافة إلى أنها رخيصة الإيجار وهي ملك صديق مدير المطعم الإيطالي الذي تذهب إليه بعد صف اللغة».

ازداد عبوس جان: «هذه ليست رفقة جيدة لعطلة مناسبة».

وضحكت لوسي: «كفّي عن كونك الفرخة الأم يا جان، ستكون عطلة ممتازة، وقد أنجز خلالها بعض الرسومات».

تنهدت جان: «حسن جداً، إذا كنت واثقة، أوه. اللعنة على فيليب، لا أصدق أنه فعل هذا بك».

وصمتت، تنظر إلى لوسي بقلق، وتسأل بحذر: «من هي هذه الفتاة الجديدة التي فضّلها عليك؟».

أكلت لوسي قطعة تفاح لتغطي امتعاضها وهي ترد على أختها: «هل

تذكرين أن فيليب غيّر عمله منذ بضعة أشهر، وعمل في مصرف تجاري في المدينة؟ يظهر أنها ابنة رئيس مجلس الإدارة، ففيليب لطالما كان طموحاً».

قالت جان متجهمة: «هذه ليست الصفة المناسبة له، حسن جداً، إنسي أمر ذلك المخادع القذر، ولتنعمي بعطلة عظيمة».

وهذا ما كانت تنويه لوسي، رغم هواجسها المتناقضة. فخلال الرحلة الطائرة إلى «بيزا» استغل الجميع فرصة الطعام والشراب المجاني الذي كانت المضيفات يقدمنه، إضافة إلى الاشتراك في عبث صاخب مع مجموعة من الشبان كانوا يجلسون في الجهة المقابلة.

وبقيت لوسي تفكر بمن سيقود السيارة المستأجرة المنتظرة في «بيزا»، ورأت بعض النظرات القاسية التي وجهها نحوهن الركاب الآخرون.

لكن محاولاتها لتهدئة الموقف كانت تواجه السخرية من رفيقاتها.

كان توماسو، صاحب الڤيلا ينتظرهن في المطار مع سيارة فيات صغيرة أنيقة، ومعه مفاتيح الڤيلا. كان أصغر سناً مما توقعته لوسي، وأكثر من فاتن، لكنها لم تشعر نحوه بالدفء.

أنبأتها نظرة واحدة من عينيه السوداوين الجريئتين، أن شكلها العادي، وشعرها الناعم القصير، وعينيها اللوزيتين المائلتي الأطراف إلى الأعلى، لم ترُق له أبداً. لكن رفيقاتها بفساتينهن الصيفية الضيقة والإثارة على وجوههن، كن مناسبات لذوقه أكثر بكثير.

لم تكن لوسي تتوقع دفع حصتها من الإيجار نقداً، لكن الأخريات لم يرين أي خطأ في هذا، لذا افترضت أنها تفتعل مشكلة مبالغ فيها. لكنها سألت بارتياب: «أليس هناك قائمة بالموجودات يجب أن نراها؟».

إلاّ أن توماسو لوّح بيده صارفاً النظر عن الجواب بابتسامة عريضة، قائلاً: «إذا واجهتن أية مشكلة، أبلغن الخادمة مادالينا».

سألت لوسي بصوت بارد: «وإذا لم تستطع الخادمة التعامل مع

المشكلة؟».

هز توماسو كتفيه: «تعالي إذن إليّ، فأنا أعيش هنا، في مونتيڤيرنو».

وأعطاها بطاقة تعريف عليها عنوان مكتوب بخط اليد.

كافحت لوسي لتكيف نفسها على القيادة باليد اليسرى. وتنهدت بصمت وهي تخرج بحذر من پيزا وتتجه جنوباً.

كان يوماً رائعاً، الشمس دافئة في سماء زرقاء صافية، والنسيم الخفيف يعبق برائحة الصنوبر وإكليل الجبل، ووجدت نفسها تمر بحقول من دوار الشمس، عبر قرى صغيرة مشرقة بالزهور، وتمتعت لوسي بكل هذه المناظر لوحدها، لأن الأخريات كن في سبات عميق.

وبينما لوسي تتبع الخريطة المرسومة باليد التي أعطاها توماسو لها، تجاوزت مونتيڤيرنو، البلدة الصغيرة المعلّقة على قمة صخرية، ثم استدارت إلى وادٍ واسع مليء بدوالي متدرجة من الكرمة وبساتين الزيتون الفضية اللون.

وهي تستدير في منحنى حاد، اعترتها الدهشة حين وجدت اسم «ڤيلا دانتي» محفوراً على أحد العمودين الحجريين الطويلين المصطفين حول بوابة مدخل كبير.

إنه مدخل مهيب لمنزل عطلة للإيجار! وعبرت سيارة الفيات بحذر عبر البوابة المرتفعة إلى طريق داخلية متعرجة حيث تصطف أشجار السرو وكأنها الحرس الأسود.

حين تراءى المنزل أخيراً للنظر، يقف متشامخاً، أحست لوسي أنفاسها تعلق في حنجرتها.

أوقفت السيارة بلطف وراحت تستمتع برؤية الجدران القديمة بلون المشمش الشاحب، وبالسلمات الحجرية العريضة التي تقود صعوداً إلى باب أمامي من الخشب الثقيل.

الصور التي رأتها في لندن لم تعط المنزل أي نوع من الإنصاف. فما تراه الآن يبدو كلوحة في إطار لا مثيل له.

علّقت ڤي وهي تخرج من السيارة: «حسن جداً. هذا سيفي بالمطلوب، أرجو أن تكون الأدوات الصحية سليمة».

ووجدت ماداليا في استقبالهن. كانت صغيرة الجسم، عصبية بشكل ظاهر. بالكاد تتكلم أو تبتسم، وهي تقودهن في جولة استكشاف سريعة.

أما الفيلا فكانت تشرف على فناء ضخم يحيط به شرفة بعمدان، مع المقصورة المظللة المعتادة في الطابق الأول. وسط الفناء بركة حجرية كبيرة ينصب فيها الماء دون توقف. بينما يقود سلم منبسط إلى تراس عريض ينتهي إلى مسبح كبير، ومنه إلى حديقة مسيّجة بشجيرات شائكة طويلة، وممرات مرصوفة بالحصى ومساكب ورد.

في الداخل، كانت الغرف واسعة، وهي تضم أثاثاً ليس بالكثير، إلا أنها تعطي الانطباع بأن كل غرض فيها منتقى بعناية كبيرة.

اتسعت عينا لوسي وهي ترى غرفة الطعام، بجدرانها المزيّنة بلوحات ورسومات وطاولة الطعام الضخمة المصقولة، ثم دخلت إلى «الصالاتو» الرسمية بسقفها الرائع المتقن، والمزين بعناية بالجص الملون. أما الأريكتان الجلديتان المريحتان فتوحيان بالدفء وهما تحيطان بالمدفأة الحجرية الواسعة.

وتساءلت لوسي بصمت: هل كل هذه الروعة مقابل الإيجار الرخيص الذي دفعناه؟

لكن الأخريات لم يبدُ أنهن لاحظن ذلك.

قالت نينا: «غرفة لكل منا، واثنتان إضافيتان، فلنأمل أن نكون محظوظات».

لكن لوسي لم تكن تأمل شيئاً في الوقت الحاضر، وأحست أنها متوترة الأعصاب ومعرضة للأخطار.

مر اليومان الأولان بهدوء عادي. وعرضن أنفسهن للشمس، وسبحن في البركة، وتمتعن بطهو ماداليا الممتاز وأمضت ساندي وقتاً لا بأس به تتكلمان على الهاتف وتضحكان بصوت منخفض.

كانت لوسي تدعو الله الا يكون اتصالهن إلى بريطانيا، وإلا ستكون فاتورة الهاتف في نهاية إقامتهن مخيفة.

لكنها ستقلق بهذا الخصوص في حينه. أما الآن، فيمكنها التمتع بالجو المحيط بها، والفخامة غير العادية لوجود خادمة تقوم بخدمتهن.

ترى لماذا لم تأت ماداليا ذلك الصباح؟

وعلقت نينا غاضبة وهي تتصارع مع آلة القهوة: «ربما هذا يوم عطلتها، هل قالت لك شيئاً لوسي؟».

ـ إنها لا تكاد تتكلم، لا زالت تبدو خائفة منا حتى الموت.

ونظرت لوسي إلى ساندي: «لماذا لا تذهبين إلى بيتها لتري ما إذا كانت بخير؟».

ردت ساندي بحدة: «ولماذا أنا؟».

ردت لوسي بصبر: «لأنك وفي تلقيتما دروساً بالإيطالية».

عبست ڤي وكأنها ستقوم بإنجاز كبير: «وكم أفادنا هذا كثيراً حتى الآن! لكنني سأحاول أن أتفاهم معها».

وما لبثت أن عادت على الفور: «لا يوجد أحد هناك، لقد تطلعت عبر إحدى النوافذ، وبدا لي المكان مهجوراً، وكأنها غادرته نهائياً».

بدا الحذر على نينا: «أوه، يا إلهي، مالنا، شيكاتنا السياحية».

لكنهن وجدن كل ممتلكاتهن آمنة في مكانها.

قالت ڤي ساخطة: «لا بد أنها سئمت عملها، لكن خدماتها مشمولة في الإيجار الذي تقاضاه توماسو. لذا يجب عليه تأمين خادمة أخرى لنا، سنخبره بعد الذهاب إلى السوق هذا الصباح».

وهكذا وجدت لوسي نفسها تجلس في الساحة الرئيسية لبلدة مونتيڤيرنو تشرب القهوة مع نينا، بينما تطوعت ساندي وڤي بالذهاب للتسوق التمويني، أمام دهشة لوسي.

عادتا محملتين، ومبتسمتين كقطتين أمام طبق كريما أفرغتاه.

قالت ساندي وهي تجلس: «لن تخمّنا من التقينا في السوبر ماركت.

الشابين اللذين التقينا بهما في الطائرة إلى هنا، بن ودايف. أليست هذه مصادفة مذهلة؟».

وكان وجهها وصوتها بالسذاجة ذاتها، لكن لوسي لمحت الغمزة التي وجهتها إلى نينا.

واضح أنهن كن على اتصال ببعضهم البعض منذ البداية، وهذا سبب كل الاتصالات الهاتفية الهامسة، ورحلة التسوق هذا الصباح. إذن هو موعد للتلاقي!

عدلت «ڤي» نظارتها الشمسية دونما اكتراث.

ـ لذا، سنقيم الليلة حفلة صغيرة، حفلة ترحيب بتوسكانيا لنا جميعاً.

نظرت لوسي إليها: «وستقيمون الحفلة في الڤيلا؟».

تحدتها ساندي: «ولمَ لا؟».

كن جميعاً ينظرن بحدة إلى لوسي، ويبدو عليهن وكأنهن ينتظرن منها وضع العراقيل على كل شيء، وهذا ما أحست لوسي بوجوب عمله.

ـ لا يبدو المكان مناسباً لشيء كهذا، فمعظم المفروشات قديم وثمين جداً، وقد لا يرغب توماسو بوجود الكثير من الغرباء في منزله.

ردت نينا: «حسن جداً، أنت متزمتة جداً، اسألي توماسو إذا اردت، وإحصلي على إذن منه، وفي الوقت ذاته أخبريه عن غياب ماداليا، واطلبي منه الانضمام إلينا إذا أحبّ».

ونظرت لوسي إلى ساعتها: «سوف أذهب لألقي نظرة على ذلك الحذاء في آخر الشارع».

ـ حسناً، سنراك هنا بعد ساعة.

إذن، أنا الآن الدخيلة! هكذا أخذت لوسي تفكر وهي تقطع الشوارع الضيقة المتشابكة نحو «روكا».

توقفت لتتأكد من العنوان الذي أعطاها إياه توماسو وهي تعبس قليلاً. لقد سألت عن الاتجاهات في المقهى قبل أن تنطلق، لكن المنازل في هذه المنطقة تبدو مزرية جداً وقديمة بالنسبة إلى رجل يسيطر على ڤيلا دانتي.

كان منزل توماسو في منتصف الشارع، درجتان مكسورتان تقودان إلى الباب الأمامي، ودرفة نافذة محطمة تتعلق بزاوية من نافذة.

حين لم يرن الجرس، قرعت لوسي الباب بيدها، لكن دون طائل. ما من صوت أو حركة في الداخل.

وقفت على أطراف أصابع قدميها، تنظر عبر النافذة. فرأت الغرفة فارغة تماماً، لا أثاث، ولا دليل فيها على الحياة.

عضت لوسي شفتها وهي تتراجع إلى الشارع، أولاً ماداليا، والآن توماسو. فما الذي يجري بحق السماء؟

نظرت حولها، غير متأكدة مما ستفعل تالياً. وأحست بريبة، وبأنها مراقبة بطريقة غير ودية من المنازل العديدة المجاورة.

يجب الاسراع لإخبار رفيقاتي بما حصل. وبدأت تتراجع في خطواتها، مسرورة بالابتعاد عن الشارع الضيق والمخيف، والعيون الخفية المراقبة حوله.

لكن لا بد أنها وصلت مكاناً خاطئاً، فقد وجدت نفسها في ساحة مختلفة، دون مقاهي أو صخب مهجورة تماماً.

سمعت لوسي وقع أقدامها يتردد صداه وهي تقطع الطريق المرصوف بالحصى الكبيرة، وتوقفت.. تتساءل أي من الأزقة الكثيرة يقود إلى خارج الساحة ويوصلها إلى مركز البلدة.

كان الصمت ثقيل الوطأة، ثم تبدد فجأة بهدير دراجة نارية قادمة من خلفها.

طار الحمام إلى فوق بأجنحة مرتجفة، واستدارت لوسي، مذعورة مشوشة حين أحست بوجود شخصين يرتديان الجلد، وخوذتين، وأدركت أن يداً بقفاز امتدت إليها مع اتجاه الدراجة نحوها.

صرخت، وحاولت القفز إلى الخلف عندما أمسكت اليد رباط الحقيبة في كتفها في محاولة لانتزاعها منها. لكن لوسي تمسكت بها، رافضة تركها. وسمعت زمجرة اختناق المحرك، مما حذرها أن الدراجة

على وشك الإسراع مبتعدة، وانجذبت إلى الأمام، لتقع متألمة فوق الحصى. وأدركت أنها سوف تزحف خلف الدراجة إذا لم تترك الحقيبة.

فصرخت «لا!» بصوت متكسر، نصفه خوف ونصفه غضب، ثم صرخت مجدداً: «النجدة، هل من أحد ينجدني!».

وسمعت صوت رجل يصرخ استجابة.

ثم رأت طيفاً أسود يركض نحوها، وأحست بنخعة أخرى لكتفها وهو يشد على الحقيبة، ثم انقطع رباطها وأصبحت لوسي ملقاة على الأرض، مقطوعة الأنفاس، إلا أن يداها ما زالتا، تتمسكان بالحقيبة، بينما كان المهاجمان يسرعان هرباً مع الرباط المتدلي كغنيمة وحيدة لهما.

بدا لها أنه من الأمان البقاء حيث هي. كان قلبها يضرب بشدة وهي ترتجف، وأحست بأنها تكاد تموت من الغثيان. وهي تشعر بأن أحداً ينحني فوقها، ويتكلم الايطالية بصوت عميق وهو يلمس كتفها بيده.

أحست بصدمة، وأخذت ترفس مذعورة: «لا، ابتعد عني».

سمعته يتمتم شيئاً بالإنكليزية، بفظاظة: «لا تكوني حمقاء سنيوريتا، لقد صرخت طلباً للمساعدة. ألا تدركين أن هذا ما أحاول فعله؟».

وسمحت له لوسي هي تئن متألمة، بمساعدتها للجلوس وأحست أن اليدين اللتين تلامسانها كانتا لطيفتين وقويتين، وداعب أحاسيسها رائحة مسكية رقيقة لعطر رجالي.

أدارت رأسها ببطء ونظرت إليه، وأصيبت بخيبة أمل وهي ترى أن منقذها لم يكن سوى ذلك الرجل الذي كان في مقهى الرصيف.

عن قرب كان وسيماً أكثر. وسيم كأمير من عصر النهضة في أوروبا، واعترفت بعد أن ضاقت عيناه تعرفاً عليها أنه متكبر مثل أمير كذلك.

قال معلقاً دون مرح: «إذن، لقد التقينا مجدداً. ماذا تفعلين في تجوالك لوحدك هكذا؟ ألا تعلمين أن هذا غير آمن؟».

رفعت ذقنها بنظرات لا تقل اندهاشاً عن نظراته وقالت: «أعرف الآن. في الواقع كنت أبحث عن صديقاتي، وكنت أظن أشياء كهذه لا تحصل

في سوى المدن الكبيرة».

ـ لسوء الحظ، هناك عناصر إجرامية في أماكن كثيرة، والآن، لنرَ إذا كنت قادرة على الوقوف.

تركته يساعدها لتقف على قدميها، وشعرت بالمرارة لأنها متسخة من جراء وقوعها على الأرض، فبنطلونها القطني الأبيض الجديد مزقته الحصى بشكل لا يمكن إصلاحه. وبدا أن كل جزء منها يختنق مرتجفاً، وأحست باندفاع مؤلم لتفجير دموعها.

وبدلاً من ذلك قالت بصوت مرتعش: «لقد أرادا حقيبتي، لكنني لم أتركها لهما».

فقال بصوت حازم: «ستيوبيدا! خسران حقيبتك أفضل من قتلك أو تشويهك».

أبعدت لوسي شعرها المشعث عن عينيها، وقالت: «لقد مررت لتوي بأحد أسوأ الاختبارات في حياتي، وكل ما تفعله هو انتقادي».

ـ لا، ليس هذا كل ما أستطيع فعله، سيارتي قريبة من هنا، وسآخذك إلى المستشفى لفحصك.

ـ لا.

رفضها كان فورياً وغريزياً، مع إدراك حدسي أنثوي أن لصوص الدراجات النارية، ليسوا الخطر الوحيد في الموقف.

بقي جامداً، وهو يرفع حاجبيه بترفع ملكي ثم يقول بهدوء شديد: «أرجو عفوك؟».

إضافة إلى ما تشعر به من وهن، أحست لوسي باحمرار كامل مع مرور عينيه عليها ببطء وإدراك.

ردت بسرعة: «أعني، شكراً لك. لكن لا داعي لإزعاج نفسك أكثر من هذا. أنا بخير حقاً، إلا أنني مصدومة قليلاً».

ابتسم قائلاً: «أنا أعرض عليك مساعدتي سنيورا. لكن لا شيء أكثر، وأنا لا أطلب منّة جسدية كمكافأة على مساعدتي، مهما كان خيالك أو

خيال صديقتك يعتقد».

الازدراء على وجهه وفي صوته لسع لوسي وكأنه ضربة سوط. لم يكن هناك سبب حقيقي لشعورها بمثل هذا الخزي، لكنها وبخت نفسها بغضب. الرجل غريب بالنسبة لها، ولن تراه مجدداً، لذا ماذا يهم لو ظنها من طينة نينا ذاتها؟

فقالت بصوت متحجر: «فكر كما شئت سنيور، أنا ممتنة لمساعدتك، لكن ليس لرأيك بي».

ـ إذن تقبلي مساعدتي، وصدقي أنني لن أستطيع تركك ببساطة هكذا وحدك.

ومع استمرار ترددها، أضاف: «لكن من ناحية أخرى سنيوريتا، لن أخصص اليوم بأكمله لمصلحتك. لذا أرجوك، قرري ماذا ستفعلين».

عضت لوسي شفتها: «حسن جداً، ربما توصيلة منك إلى الساحة الرئيسية تكفي. سألتقي صديقاتي هناك».

قال بنعومة: «بالطبع، ما من شك أنه سيكون هناك مواهب رجالية. ويجب أن تكوني حذرة سنيوريتا، إثارة الرجال في توسكانا هو كاللعب بالنار.

نظرت إليه نظرة باردة: «أرجوك، لا تشغل بالك بأمري سنيور. أنا مضادة للنار، أؤكد لك».

كان انطباعها الثابت هو أن باصاً صدمها، لكنها صرّت على أسنانها وسارت تعرج إلى جانبه، إلى حيث تقف سيارته في شارع قريب.

كانت سيارة رياضية، سوداء طويلة، منخفضة. وقررت لوسي أنها مثل صاحبها.

وبكثير من الوقار قبلت مساعدته لها لدخول المقعد المجاور للسائق، وجلست بصمت وهو يشق طريقه ببراعة عبر شوارع متشابكة ليخرج إلى الساحة المألوفة المزدحمة جداً، حيث توقف.

وقال بأدب بارد: «أنت واثقة أنك لن تسمحي لي بأخذك إلى عيادة

طبيب؟».

ـ بالتأكيد، الأضرار سطحية فقط. ولقد أخذت حقنة مضادة للعدوى قبل المجيء إلى هنا.

أدركت لوسي أنها تهذر، فتمتمت: «لقد كنت..».

وصمتت مجدداً.

بحثت عن مقبض الباب، فمال نحوها ليفتح الباب، ومرة أخرى شمتّ لوسي ذلك العطر المسكي المثير للاضطراب حين اقترب منها.

والتقت بنظراته، ورأت شعلة صغيرة تتراقص في عينيه الكهرمانيتين، وابتلعت ريقها وهي تسمعه يقول ساخراً:

ـ إذن، أنت تظنين نفسك مضادة للنار؟.

ثم مال إلى الأمام وعانقها ببطء. ثم ابتعد عنها، وبتلويحة رشيقة من يده، أشار لها أنها حرة لتذهب.

وبغضب صامت، خرجت لوسي من السيارة تتعثر. وهي تسمع صوته يلحق بها ساخراً بنعومة: «أرجو أن لا يكون الرجل الإيطالي قد خيّب أملك. اريفيوارتشي سنيوريتا».

ثم، بصمت الفهد، ابتعدت السيارة، وبقيت واقفة تحدق خلفها، ويدها مضغوطة على شفتيها المرتجفتين.

***

٢ - في الزوايا خفايا

إنها ليست المرة الأولى التي توبخ فيها لوسي نفسها: بحق السماء، أنا لست طفلة، لقد أحببتُ رجلاً من قبل، لذا فعناق خاطف، من رجل غريب، ليس أمراً عظيماً.

كانت مستلقية على الفراش في غرفتها في الڤيلا، تحدق إلى السقف، وهي تحاول وضع كل ما حدث في قالبه الطبيعي.

كانت صديقاتها مصدومات حقاً. في البداية، أردن استدعاء الشرطة، لكن لوسي رفضت، فليس معها رقم الدراجة النارية ولا أي وصف مفهوم لراكبيها. وعدا تمزيق حقيبتها وبنطلونها، فهي لم تخسر شيئاً، وشاهدها الوحيد لا تعرف حتى اسمه. فهزت رأسها وهي تمرر طرف لسانها على شفتيها.

وقادت نينا سيارة الفيات إلى ڤيلا دانتي بحذر مبالغ فيه.

لكن، على أي حال كن مرتابات حين أخبرتهن لوسي عن غياب توماسو وكان الشعور المشترك أنها ذهبت إلى العنوان الخاطىء.

سألت نينا: «أعني، هل يمكن لرجل يملك مثل هذا المكان، العيش في حي فقير؟».

واعترفت لوسي أن هذا الأمر يبدو مريباً، وفكرت: في الغد سأقوم بتحقيقات ملائمة.

على أي حال، حتى الآن لا أثر لمادالينا، وهذا يعني أن على نينا وساندي وڤي التحضير للحفلة بأنفسهن. لأنه لم يكن من المتوقع مساعدة

لوسي لهن.

ما أن أصبحت لوسي لوحدها حتى ملأت المغطس الكبير الذي يحتل مكاناً فاخراً في حمام ملحق بالغرفة، وغاصت فيه.

كان لديها خدوش سطحية على ركبتيها ومرفقيها، وهناك دون شك كدمات ستظهر فيما بعد.

وبينما هي تجفف نفسها بحذر وترتدي روبها الحريري الليموني اللون راحت تفكر بأن مشاعرها المجروحة ليس من السهل شفاؤها.

من المثير للسخط أن تصنّف مع نينا المتشوقة للرجال. على أي حال، لن تواجه معذبها مرة أخرى. لذا فالطريقة الأكثر تعقلاً، كانت وضع ذلك الحادث التافه أصلاً وراءها والتمتع ببقية عطلتها.

لم تكن غرفتها أكبر غرف النوم. لكنها كانت تطل على منظر رائع للوادي المقابل، أحبت لوسي قطع الأثاث المكوم بغير انتظام، والستائر الثقيلة البسيطة العاجية اللون. وتبيّن لها أن الغرفة كانت رجالية تقريباً، ربما هنا ينام توماسو عادة، واقشعر بدنها للفكرة.

كانت رفيقاتها أصغر منها سناً ولو ببضعة أشهر، ويعين تماماً جاذبيتهن، ويتطلعن إلى قضاء وقت ممتع. فما هو الضرر في هذا؟

قالت لنفسها بقوة: يجب أن أتوقف عن نقدهن وأنضم إلى نشاطهن أكثر، وسأبدأ من حفلة اليوم، ولن أنسى أني عزباء مثلهن.

نامت فترة، وكانت أحلامها مشوشة مضطربة. فطوال الوقت كان هناك شبح أسود لرجل وجهه متفاخر وجميل كملاك هابط من السماء.

استفاقت عند الشفق مجفلة، يداها تمتدان عبر الفراش الفارغ وبقيت مستلقية تنتظر ضربات نبضاتها المرتفعة كي تهدأ.

إنه فيليب، لا بد أنني أفتقده.

لم تشعر بالراحة، وبدأت تتصلب، وهي ترى بعض الكدمات قد ظهرت.

معظم الثياب التي أتت بها معها، كانت عادية. لكنها في آخر دقيقة،

رمت في الحقيبة بفستان مناسب للسهرة والحفلات.

نظرت إليه دون حماس، كان فيليب قد أقنعها بشرائه، ولو ضد إرادتها، خلال آخر أسبوع لهما معاً. لم يكن من الطراز الذي تحبه، قصير التنورة، بياقة مشقوقة، مثلث عميق، لا يتناسب أبداً مع ثناياها النحيلة. ولونه الأحمر القاتم لا يناسبها كذلك لأنه يستنزف لونها الطبيعي.

لكنه كان اللباس الوحيد لديها اللائق للحفلة. وهي ترتديه راحت تفكر بأن ارتداءه ربما يفيدها، كذكرى ملموسة بأن علاقتها بفيليب لا تعني شيئاً.

لقد أمضت أياماً وليالي منذ انفصالهما، تتعذب بلوم الذات، وتسأل نفسها كيف كان من الممكن أن تكون عمياء هكذا، أو لماذا لم تشك فيه في الوقت المناسب لتصحح الأمور، وتستعيده.

الآن، وهي تمشط شعرها بالفرشاة تأكدت أن لا شيء كان يمكنها فعله. أدركت بهدوء وتجرد بأن السحر خرج من حياتهما منذ زمن بعيد قبل رحيله.

لكن، لماذا ترى كل هذا بوضوح الآن؟

وعضت شفتها بارتباك وهي تتساءل.

السبب هو أن رجلاً عانقها اليوم، شخص لن تلتقيه مرة أخرى. وحين عانقها اهتزت حتى أعماق كيانها، وارتعش قلبها.

في أحلامها منذ قليل، لم يكن فيليب هو الذي أحست به، بل الرجل الآخر، في دفء أنفاسه، ورائحة عطره، وقوة ذراعيه وهو يضمها إليه.

ونظرت إلى نفسها في المرآة متسائلة وفكرت: يا إلهي ماذا يحدث لي؟

ولم تستطع إيجاد الرد.

بالرغم من كل تصميمها على المشاركة في الحفلة، لم تستطع التكيف في الجو الاحتفالي.

وصل الضيوف ومعهم آلة تسجيل ضخمة. وكانت ڤي قد حضرت

تشعة كبيرة من السباغيتي أكلوها في غرفة الطعام، وأجفلت لوسي لرؤيتها طيف يطفىء سيكارته دونما اكتراث على زاوية الطاولة الكبيرة.

قال بن متراجعاً في كرسيه: «يا له من مكان رائع! لقد كنتن محظوظات لإيجادكن مكاناً كهذا. حين جاء أبواي إلى هنا للبحث عن مكان لقضاء العطلة، وجدا أن كل شيء في هذه الناحية ملك لمجموعة تدعى «فالكون» أي «الصقر» وهي أسرة مصرفية من فلورنسا، ليست على استعداد لمفارقة إنش واحد من أرضها».

فقالت لوسي: «فالكون؟ كم هذا غريب؟ هناك مجسّم طير فوق الباب الرئيسي هنا. وأتساءل عما إذا كان له علاقة بذلك؟».

قالت في متكبرة: «لوسي تحب الأبنية القديمة جداً، وهي تلاحظ أشياء كهذه».

مال هال إلى الأمام، وهو شاب أشقر طويل أكبر سناً من الآخرين.

- ربما يمكنها التحول إلى الحاضر وملاحظة وجودي.

ونظر إليها نظرة خبث، جعلت الجميع يضحك، لكن لوسي أحست بعدم الارتياح.

بعد انتهاء العشاء، لفوا السجاد في «الصالاتو» ورقصوا. ووجدت لوسي نفسها تراقب الرقص باهتمام من بعيد، وبدا لها أن التجمع لن ينتهي إلى ما يشتهيه الجميع.

أحست لوسي أن هال يتقدم نحوها، وقررت بسرعة أن الأفضل لها إشغال نفسها بتنظيف غرفة الطعام، التي كانت تبدو وكأنها أصيبت بقنبلة. وأخذت تجمع الصحون المتسخة. كان الطعام مسكوباً في كل مكان، إضافة إلى بقع الشراب المتساقطة من الأكواب المنقلبة فوق الطاولة، وهناك مصباح كان فوق طاولة جانبية مرمي ومحطم، وأحد المصابيح الكريستال الجميلة محطم أيضاً.

المطبخ كان أكثر سوءاً. وبدا أن في استخدمت كل الأواني والقصاع لتحضير السباغيتي، وتنهدت لوسي دون صوت، ولفت المريول حول

خصرها، وبدأت العمل.

بدا لها أن ضجيج الأصوات في الحفلة يخفت، وسمعت صوت ضحك يأتي من الخارج. وحين خرجت لتستطلع الأمر وجدتهم جميعاً يجلسون على جانب بركة السباحة.

كانت ليلة دافئة شديدة الرطوبة، السماء تلمع بالنجوم، وأحدهم غيّر شريط التسجيل إلى نغم موسيقي بطيء حالم.

وهي تستدير لتذهب، وجدت هال يسد طريقها: «تهربين منا؟».

رفعت ذقنها: «كان لي يوم سيء. وأعتقد أنني سأذهب إلى الفراش».

أعطاها ابتسامة بطيئة مليئة بالمعاني: «يا لها من فكرة رائعة، سأرافقك».

لم ترد على ابتسامته: «أظن من الأفضل بقاءك مع أصدقائك».

وأومأت برأسها نحو سو وكلير: «يبدو أن بعضهن غير سعيدات».

- يستطعن العناية بأنفسهن. كنتُ أراقبك طوال الأمسية، أنت شخصية غامضة لوسي.

طافت عيناه عليها، وأمسك بذراعها قائلاً: «فما هي قصتك؟».

أبعدت يده عن ذراعها: «ليس لدي قصة، وإذا لم تمانع، أريد الذهاب».

تصلب صوته قليلاً: «أوه، لكنني أمانع، وسأبقى معك فأنت تثيرين فضولي».

ردت بصوت مثلج: «أخشى أن لا يكون هذا متبادلاً».

واستدارت عنه، تسعى إلى سبيل آخر للتراجع، لكن هال أمسك بكتفيها وأدارها لتواجه الآخرين: «السيدة تريد الرحيل، فما قولكم؟».

صاحت ڤي: «أوه، دعها تذهب، اسمها وينترز، أي الشتاء. وهي باردة كالشتاء في طبيعتها».

ثم أضافت ضاحكة: «إنها ليست خسارة».

صاح بن: «لا، بل احتجزها هنا، فهي تستحق هذا لكونها مفسدة

المسرات».

قال غريغ ساخراً: «لكن لا تفسد لها فستانها».

وراحت نينا تضحك.

- هيا، اذهبي، اذهبي، اذهبي!

وانضم إليها الآخرون في ضحكها ما عدا سو وكلير اللتين حافظتا على صمت مطبق.

جمدت لوسي وهي تشعر بيدي هال الخبيرتين على ما يبدو، تمسكان بذراعيها بقوة. فرفسته إلى الخلف مذعورة: «لا».

وصدم كعب حذائها عظمة ساقه، فأخذ يشتم وخفف قبضته عنها.

وكان هذا كافياً، لتحرر لوسي نفسها، ثم وجدت نفسها تركض حول البركة في الحديقة. وأعطاها الخوف البائس السرعة اللازمة.

كان لديها فكرة مجنونة بأن تصل إلى موقف السيارات جانب المنزل. لكنها وجدت شيئاً يسد طريقها مرة أخرى، وعرفت أنه شخص ما بعد أن أمسك بها لتبقى جامدة في مكانها.

فراحت تقاوم بشراسة، تضرب بقبضتي يدها وتنشب أظافرها في اليدين الآسرتين لها: «دعني أذهب، قلتُ لك دعني، اللعنة عليك».

وكان الصوت مألوفاً وصارماً: «اصمتي أيتها الحمقاء، وابقي ساكنة».

رفعت لوسي رأسها لترى الوجه الأرستقراطي الأسمر، وبصوت متكسر ارتياحاً قالت: «أنتَ؟».

ودون وعي منها، وجدت نفسها تضغط جسمها عليه وتدفن وجهها في صدره وهي تتنفس أنفاساً مشتتة.

وللحظات تركها حيث هي، ثم أبعدها عنه متقدماً نحو الحديقة وأضوائها.

استدارت كل الرؤوس نحوه، الضحك والصراخ ماتا ليتبعهما صمت غريب، اخترقه صوته الهادىء البارد، قائلاً:

ـ أنا جوليو فالكون، وهذا منزلي، هل لي أن أعرف ماذا تفعلون هنا؟

كانت نينا أول من كسر الصمت الساحر الذي فرضه ظهوره.

ـ منزلك؟

أضافت وهي تواجهه محمرة مشعثة وعدوانية بشكل صريح: «عمّ تتكلم بحق الجحيم؟».

قاطعها بن بحدة: «مهلك، إنه هو، إنه الكونت فالكون بذاته».

ردت نينا بحدة: «لست أهتم بمن يكون، هذا المكان ملك لتوما مورسي. ولقد استأجرناه منه».

ـ أنت مخطئة سنيورينا.

وكان صوت الكونت فالكون كالفولاذ: «ذلك الرجل، مورسي، الذي تتكلمين عنه هو ابن أخت خادمتي، ماداليا. وهو لا يملك شيئاً عدا ما يستطيع سرقته، وأرجو أن لا يكون استغلك ودفعت له شيئاً».

تكلمت لوسي بصوت أجوف: «أخشى أن نكون فعلنا هذا».

وأخذت يداها ترتجفان وهي تسوّي وضعية فستانها.

ـ إيجار ثلاثة أسابيع، إضافة إلى استخدام سيارة وخدمات الخادمة، لكن الخادمة اختفت، وكذلك السنيور مورسي.

هز جوليو فالكون كتفيه: «لا أشك في هذا، فأنا واثق أن خبر عودتي غير المتوقع انتشر على الفور، مما جعل مورسي يهرب بسرعة قبل اكتشاف أمره».

هز رأسه بأسف أكثر من الغضب: «مسكينة ماداليا! لطالما أفسدت ذلك الأحمق الذي لا يساوي شيئاً».

ردت فيّ بصوت حاد مرتفع: «مسكينة ماداليا؟ إلى الجحيم، ماذا عنا، عن مالنا؟».

فأجاب فالكون بلهجة رسمية: «أنا آسف أن تكوني ضحية، لكن هذه ليست مشكلتي، ما يجب أن أطالب به هو إخلاء منزلي فوراً».

ونظر حوله عابساً: «هل تقيمون جميعاً هنا؟».

فقال بن: «لا، والداي يسكنان قرب لوشيون».

ـ إذن أقترح عليك العودة إلى هناك، وأخذ أصدقائك معك.

قالت لوسي بقوة: «لا».

لقي رفضها صداه عند سو وكلير، وصاحت سو في وجه بن: «إذا أخذت هاتين الساقطتين معنا، فسأرحل».

التوت شفتا الكونت: «يبدو أن لدينا طريق مسدود، وأقترح تدبير الأمر بينكم، قبل اضطراري إلى استدعاء «البوليس».

ونظر إلى ساعته: «هل أقول بعد ربع ساعة؟».

ذكره للشرطة، كان له أثر كهربائي غريب، فخلال ثوانٍ، أخلي محيط البركة، واتجهن إلى الطابق الأعلى من المنزل لتوضيب أغراضهن.

بينما كانت لوسي تمر بباب الصالاتو، سمعت جدالاً عنيفاً يجري بين بن والآخرين. وأبعد هال نفسه عن الجدال وتقدم إلى الباب.

مرت عيناه على لوسي بتقييم مزج الإثارة بالشر: «لا بأس حبيبتي، لا داعي لقلقك حول أي شيء. لدي غرفة خاصة بي في منزل بن، وسأتأكد من أن يعتني بك أحد، إذا كنتِ ودية معي».

قالت بوضوح مثلج: «لن يحدث هذا سوى على جثتي».

وانجهت إلى غرفتها، تصعد السلم درجتين في كل خطوة.

كان قلبها يضرب كالمطرقة وهي تبدأ بإفراغ الأدراج والخزانة، لا تكاد تعي ما تفعل وهي تحاول التفكير والتخطيط، وأخذت تكوّم ثيابها دون ترتيب في حقيبتها وهي تفكر بأنه يجب الوصول إلى پيزا والحصول على طائرة عائدة إلى الوطن.

ستتمكن من تحويل نصف بطاقة العودة التي معها إلى رحلة أخرى، وإذا لم تستطع، فستضطر إلى دفع ثمن تذكرة العودة مجدداً.

ثم دخلت الحمام لتجمع أدوات التجميل.

حين عادت إلى غرفة النوم، أدركت بخفقة قلب أنها ليست وحدها.

كان جوليو فالكون يستند إلى الباب، يراقبها.

قالت بسرعة: «لست مضطراً لتتفحص ما أفعل، لقد كدتُ أنتهي».

ـ هذا ما أراه.

وصمت لحظات ثم قال:

ـ هل أنت متشوقة جداً للذهاب إلى لوشيون؟

رمت حقيبة التبرج في حقيبة الملابس، وأقفلت الغطاء: «تعرف جيداً أنني لن أذهب إلى هناك».

ـ لن تذهبي؟ ألا تريدين أن تكوني مع أصدقائك؟

عضت شفتها: «إنهم ليسوا أصدقائي».

رفع حاجبيه سخرية: «مع أنني لاحظت بأنكم أصدقاء حميمين جداً».

احمر وجه لوسي، وتذكرت بالضبط ما شاهده عند بركة السباحة.

ـ إنهم أناس التقينا بهم في الطائرة، نينا والفتاتان الأخريتان أردن إقامة حفلة، فدعون الجميع إلى هنا الليلة.

قال بصوت بارد: «أجل. لقد رأيت آثار الدمار الذي تسببوا فيه، خاصة في غرفة الطعام».

اعترفت: «لم أنتهِ من تنظيفها بالكامل بعد لكنني نظفت المطبخ، وأنا واثقة أننا ستكون سعيدات في إصلاح أي ضرر قبل رحيلنا».

ورفعت ذقنها تحدياً. فضحك: «أنت ساذجة جداً سنيوريتا، المصباح والكأس الكريستالي لهما قيمة مرتفعة، وإيجاد بديل لهما أمر مستحيل، وثمن هذه الأنتيكات باهظ جداً، لا تقدرن عليه أنت ورفيقاتك».

غاص قلب لوسي، وردت بشجاعة: «حسن جداً، يمكننا جميعاً المساهمة، وبالطبع قد تجد الشرطة توماسو مورسي، وتسترد لنا مالنا منه، وأعتقد أنك تستطيع المطالبة بهذا».

ـ أعتقد أن توماسو في مكان بعيد جداً عن هنا الآن، تاركاً عمته المنكودة الحظ ماداليا كالعادة، تلملم القطع المتكسرة من وراءه.

نظرت لوسي إلى الأرض.

ـ أفهم الآن لماذا لم ترغب ماداليا بأن نكون هنا. لقد بدت خائفة جداً.

قال ساخراً: «أستطيع تصور هذا، مع ذلك كان يمكن لهذا أن يكون آمناً، لم يكن لدي خطط لاستخدام الڤيلا بنفسي قبل موعد جني العنب. لكن الظروف تدخلت، أنتن سيئات الحظ سنيوريتا، كان يمكن أن تتمتعن بالعطلة دون مقاطعة».

ارتجفت لوسي وقالت: «لست واثقة أن الاستمتاع هي الكلمة الصحيحة».

تفرست فيها عيناه بتمعن: «لا؟ مع ذلك فأنت ترتدين ثياب سهرة للمرح».

صرت لوسي على أسنانها، هذا الفستان اللعين!

ـ كيف التقيت بمورسي، وسمعت عن هذا المكان؟

ـ لقد اعتادت الأخريات زيارة مكان لبيع البيتزا بعد صفوف اللغة الإيطالية، ولقد رتب مدبر المحل لهن كل شيء، ولا بد أنه وتوماسو متفقان.

صمتت قليلاً، ثم قالت: «لم أكن واثقة منه منذ أول لحظة رأيته في پيزا، وحين رأيت هذا المنزل، وكم هو جميل، وقديم، بدا لي الأمر أكثر غرابة. لم يكن، مناسباً لتوماسو أبداً».

وساد صمت آخر، ثم قال: «حسن جداً، وما هو البديل عن لوشيون؟».

ـ پيزا، ثم أول رحلة إلى بلادي.

ـ قد يشكل هذا مشكلة، فهذا على أي حال موسم العطلات، ولن يكون هناك مقاعد كافية متوفرة، هذا إذا وجد.

هزت كتفيها تدافع عن نفسها: «إذن، سأجد مكاناً أقيم فيه، وأكون على قائمة الانتظار».

كان صوتها واثقاً أكثر مما تشعر به حقاً، وقامت بحساب فكري صغير لما تملكه من مال. لكن، من الواضح أن كلامها لم يخدعه: «وهل تستطيعين تحمل كلفة هذا؟».

نظرت إليه متحدية: «ليس لدي خيار آخر».

قال بنعومة: «من حسن الحظ أنني قرأت أفكارك بشكل صحيح».

جمدت لوسي: «ماذا تعني؟».

ـ لقد رحل أصدقاؤك، قلت لهم إنك لن ترحلي معهم.

حدقت به لوسي، وهي تعي بشدة مفاجئة كم أصبح المنزل هادئاً.

وقالت بصوت متكسر: «تعني، أنهم، تركوني هنا لوحدي؟ ودون أية كلمة؟».

ازداد عمق ابتسامته، وقال بلطف: «لست وحدك سنيوريتا، لقد نسيت أنني سأكون هنا كذلك. من الآن وصاعداً ستبقين هنا، كضيفة عندي».

ووسط دهشة لوسي واتساع عينيها، صمت فالكون برهة. ثم أضاف بنعومة: «وكمرافقة لي، كذلك».

***

فجأة أحست أن جسمها يرتجف، وأن كل الدفء خرج من جسمها ليتركها ببرودة الثلج.

تكورت يداها بقبضتين، وغرزت أظافرها في راحتي يديها الطريتين، وحاولت أن تُبقي صوتها هادئاً.

ـ رفيقة، سنيور؟ لا أعتقد أنني أفهم ما تعنيه؟

ـ الأمر بسيط جداً، ستبقين هنا سنيوريتا لتعوضي عن الإهانة التي لحقت بمنزلي، وعائلتي، على يدك ويد.. معارفك.

أخذت لوسي نفساً مجفلاً: «سأبقى؟ لكن هذا غير منصف..».

هز جيليو فالكون كتفيه: «باعترافك، لا يمكنك تحمل الإصلاح

المناسب للضرر الذي تسببتم فيه، على أي حال، هناك وسائل أخرى للتعويض، وأعتقد أننا سنصل إلى اتفاق سيكون.. مقبولاً لنا معاً».

قالت لوسي بشراسة: «إذن أنت مخطىء».

لم تعد هادئة، أصبحت الآن تحترق خجلاً وغضباً، أضافت:

ـ كيف تجرؤ على اقتراح شيءٍ كهذا؟ ومن تظن نفسك؟ وهل تظن أنني...؟

رمى رأسه إلى الوراء وهو يقهقه: «أنا فالكون، وأنت فتاة ارتجفت مرتين بين ذراعي، هل يمكن أن تنكري هذا؟».

ـ كنتُ متكدرة، ظننتُ أنك أدركت هذا، على أية حال أرجو ألا يذهب خيالك بعيداً.

فرد وكأنه يتذكر: «آه، أجل، لكن في تلك الحالة، لماذا كنت تغوين رجلاً بارتداء فستان مغري ثم تصدينه إن لم تظهر رفيقاتك أي صدود؟».

قالت باختصار: «أنا لست مسؤولة عن تصرف أحد سوى نفسي، وأنا لا ألعب ألعاباً كهذه».

قال ساخراً: «لا» ببساطة أكثر من كافية. ولو أن عينيك ليس فيهما نظرة امرأة عرفت كل أنواع الاكتفاء الذي يقدمه الحب.

قالت متكبرة: «لا أعرف عمّ تتكلم».

ضحك: «أنا واثق أنك لا تعرفين، لكن سيكون من دواعي سعادتي تعليمك في يوم ما».

وأحست لوسي بتزايد نبضات قلبها وبتصلب عضلات عنقها ثم تمالكت نفسها. وتمكنت بهزة كتف صغيرة من القول: «لحسن الحظ، لن أبقى هنا طويلاً، فكما قلت، أنا ذاهبة إلى بيزا».

قال الكونت مفكراً: «آه، وكيف تقترحين وصولك إلى هناك؟».

توقفت لوسي وهي تقفل حقيبتها.

ـ لماذا، سأذهب إلى هناك بالسيارة طبعاً.

ـ لم أكن أعرف أنك جئت بسيارتك الخاصة.

ـ حسن جداً، لم أفعل، لكن..

وتلاشى صوتها وهي ترى ابتسامته تزداد سخرية وعمقاً.

قالت: «وبالطبع، السيارة لك كذلك، كان يجب أن أدرك هذا».

ـ ليست لي، إنها للكونتيسة.

جمدت لحظات دون حراك، وراحت أفكارها تدور دون جدوى، ففكرة أنه قد يكون متزوجاً لم تخطر ببالها أبداً، فقالت بخشونة: «إذن، لها كل تعاطفي».

رفع حاجبيه بسؤال: «ولماذا؟ هل قيادة هذه السيارة أمر صعب؟».

ـ بالطبع لا، بل عنيت أنني أشفق على أي شخص متورط مع زير نساء مثلك.

قال برقة: «مظهر حمامة ولسان دبور، وهذا مزيج مثير».

سحبت لوسي الحقيبة عن السرير وقالت: «ليس لوقت أطول من هذا، هل يمكن إقراضي سيارة كونتسيتك لأصل بها إلى پيزا، أرجوك!».

ـ لا، لن أفعل.

رفعت ذقنها: «حسن جداً، سأسير إذن إلى هناك».

تفرس بها ساخراً: «وبهذا الفستان؟».

قالت: «كنت سأغيّر ملابسي لو أتيحت لي الخلوة».

ـ لكن هناك مسألة التسلل إلى أملاك الغير، التي يبدو أنك تتجاهلينها.

بدأ الخوف ينتابها مجدداً، ليجعل معدتها تنكمش وقالت بتوتر: «لا يمكن أن تكون جاداً سنيور، نحن تصرفنا بحسن نية، ولم نكن نعرف أن هذا منزلك».

ـ هذا ليس دفاعاً، خاصة إذا أضيف إلى التخريب المتعمد لأملاكي.

لم تستطع مجادلته، فمعرفتها بالقانون الإيطالي معدومة، فربما إيطاليا هي من البلدان التي تعتبر الشخص مذنباً حتى تثبت براءته.

حاولت مجدداً: «لكنك لا تستطيع وضع كل اللوم علي، كان هناك

أفراد آخرون مشاركين».

رد بهدوء: «هذا صحيح، لكنهم رحلوا، وأنت، الوحيدة الباقية للقيام بالتعويض الذي أطلبه».

ـ أنت تعتقد أنني مثلهن، لكنني لست كذلك أقسم لك.

فرفع كتفاً بإهمال: «أصدقك، وإلا لما أردتك».

ومرت العينان الكهرمانيتان المسلطتان المراقبتان عليها، لتتوقف في أماكن محددة. وارتجف جسمها بعجز وامتلأ دماغها باليأس.

قالت: «ليس لك الحق، أبداً، بإبقائي هنا ضد إرادتي».

ـ أعتقد، وحسب الظروف، أن لي كل الحقوق، لوسيا ميّا.

ـ لا تناديني هكذا.

قطب جوليو فالكون: «قيل لي إن هذا هو اسمك».

وقفت متشامخة، تنظر إليه متحدية: «أجل، لكنني لم أعطك إذناً بلفظه».

قال بنعومة: «هذا تفصيل تافه، في مثل هذا الوقت، ونحن على تفاهم حميم هكذا».

سألت بازدراء: «هذا لأنني قبلتُ مساعدتك؟».

ـ لا، بل لأنك كنتِ تحتلين غرفتي وتنامين في فراشي، ميا بيلا، والذي أعتقد أنك اخترته من بين كل الأسرّة الباقية، ألا يؤسس هذا نوعاً من الرباط بيننا؟

راقب اللون الشاحب يهاجم وجهها، ضاحكاً: «لا تقولي لي إنك لم تحزري هذا».

صرّت على أسنانها: «فكر كما تشاء، لكنني لن أقضي ليلة أخرى هنا، أو في أي مكان تحت سقفك».

ـ لا أظن أن هذا خيارك، قدمي لي التعويض الذي أطلبه، وأعدك أنك ستصلين فيما بعد إلى پيزا، وثمن تذكرة السفر مدفوع، وجناح في أفضل فندق تحت تصرفك وأنت تنتظرين موعد السفر.

ردت لوسي باختصار قاطع: «لا اتفاق بيننا، أنا لست للبيع سنيور».

ـ أنا لا أشتري سنيوريتا، لكنني مستعد، مستعد لاستئجارك لفترة.

بالرغم عنها، ارتجف صوتها لكنها قالت بشجاعة: «أنت تقرفني، استدعي الشرطة، لماذا لا تفعل؟ فالسجن عندي أفضل من دقيقة أخرى في منزلك، وسيكون لي قصتي الخاصة التي أرويها للشرطة».

تنهد: «في غرفة نومي، وبهذا الفستان؟ أعتقد أن المظاهر ستكون ضدك لوسيا».

ـ لكن زوجتك قد يكون لديها وجهة نظر مختلفة، أم أنها تنظر إلى تصرفك المخادع القذر كأمر مسلّم به؟

قال جوليو فالكون متجهماً: «قد يكون من المفيد استبقاؤك هنا ولو لتعليمك كيفية الحديث المتمدن. على أي حال، ليس لدي زوجة، كما أنك مخطئة حول دوافعي للاحتفاظ بك».

ورأى السؤال المحتار المفاجىء في عينيها، فابتسم ساخراً: «لقد انتهت الكوميديا الصغيرة بيننا سنيوريتا. اهتمامي بك، ويا للأسف، عملي أكثر مما هو رومانسي، وأرجو أن لا تشعري بخيبة أمل كبيرة».

قالت ببرودة مصطنعة: «على الإطلاق، هذا لو كان عندي فكرة عما تقول».

ـ في الواقع، الأمر بسيط جداً، لدي مشكلة يمكن أن تقدمي لها حلاً، ففي الأمس، تعرضت شقيقتي لحادث سيارة، ولم تصب هي أو الولدان بأذى كبير، لكن المربية لم تكن محظوظة هكذا، فقد كسرت ساقها، وهي تمضي بعض الوقت في المستشفى.

صمت قليلاً، ثم أضاف: «ترغب فيامیتا بالمجيء إلى هنا لترتاح وتستعيد نشاطها. لكن لا يوجد أحد الآن ليعتني بالولدين، وماركو وإميليا يشكلان حفنة مشاكل».

فتح يديه: «فكرتُ، بالطبع، أن مادالينا ستكون هنا لتتولى الأمور إلى حين شفاء اليسون، فالولدان معتادان عليها. لكن بالطبع، لا وجود

لمادالينا، أنت فقط، لوسيا».

ابتلعت لوسي ريقها وهي تشعر أن الارتياح قد غلبه انكماش غريب.

ـ أنا؟ لكنني لست مربية.

ـ لا، لكنك موجودة هنا الآن، ولقد اعترفت أنك مدينة لي بدين لا يمكنك دفعه، وفي المقابل أفسدتُ عليك عطلتك.

ونظرت العينان الكهرمانيتان إلى عينيها، وأحست أن قلبها خفق فجأة، وبألم.

ـ قولي لي صدقاً لوسيا، هل ترغبين حقاً بمغادرة توسكانيا بسرعة، في وقت تستطيعين فيه البقاء هنا، وأخذ المال أجراً لبقائك؟

ـ لا يمكن هذا.. حقاً.

ـ ولماذا لا؟ مع شقيقتي وولديها ستكونين آمنة، إذا كان هذا ما يقلقك.

رأت لوسي التسلية في عينيه، والتواء فمه المثير، واحتجت رافضة طلبه: «لكنني سأكون غير مناسبة أبداً. فأنت لا تعرف شيئاً عني».

ـ ربما، لست معتادة على الأولاد؟

ردت غضباً: «حسن جداً، لا، فلدي أبناء أخوة وأخوات».

ـ من أية أعمار؟

ـ سنة وأربعة.

بابتسامة طوعية، أضافت: «لكن لا زال هذا خارج السؤال».

ـ لا أرى السبب، ماركو وإميليا أكبر قليلاً، هذا صحيح. لكنهما مرا بتجربة سيئة ويحتاجان إلى من يهتم بهما. بالرغم من طباعك الغاضبة لوسيا، أنت لا تبدين لي دون قلب.

ـ هذا ابتزاز عاطفي.

هز كتفيه: «تقولين إنه لا يمكن استئجارك، ولا شراءك، فماذا بقي لي؟».

ـ لكن، قد يكون لشقيقتك أفكار أخرى.

ـ كالعادة، فياميتا ستوافق دون اعتراض. سيخرجون من المستشفى صباح الغد، وسيأتون إلى هنا مباشرة، ولن أستطيع أن أدعهم يرون منظر هذا الدمار.

قالت لوسي بصوت أجوف: «وهنا يأتي دوري؟».

ـ حتى الغد، حين سأتمكن من إيجاد بعض المساعدة، بكل تأكيد.

أعطاها نظرة قاسية: «لكان من المفترض حفاظك على المكان نظيفاً مرتباً، على أي حال».

عضت شفتها.

ـ أعتقد هذا، لكن إذا كان كل ما تريده هو خادمة منزل ومربية في آن واحد، فلماذا تظاهرت، وتركتني أعتقد..؟

وصمتت، غاضبة من نفسها لهذا السؤال.

ـ لأنك كنتِ مستعدة أن تصدقي أنني كازانوفا من طراز جديد.

والتوت شفتاه المشدودتان قليلاً وأضاف: «إغراؤك بأن أثبت أسوأ مخاوفك كان لا يقاوم أبداً، صدقيني. لكن، طالما أنت تعملين عندي، وتحت سقف بيتي، فستكونين آمنة تماماً».

ورمى نظرة إلى السرير المبعثر: «إلا إذا.. أصريت.. بالطبع».

أحست بغضب وباحمرار وجهها، وقالت متصلبة: «لن أصرّ».

ـ إذن، أقترح أن تجدي لنفسك غرفة أخرى.

وكانت لهجته وابتسامته لطيفتين، لا تحملان أي تلميح، الأمر الذي زاد انزعاجها.

التقت نظراتهما وقالت: «إذن، إن وافقت على مساعدتك، فهل تعدني بإلغاء كل التزام بيننا؟».

ـ بل أكثر من ذلك، سوف أتأكد من عدم معاناتك أي خسارة مالية نتيجة خداع مورسي لك.

وصمت قليلاً: «وآمل أن تأخذي معك بعض الذكريات التي لا تنسى عن توسكانا إضافة إلى عرفان جميلك الذي لن تنساه أسرة فالكون».

ردت ساخرة: «وبالطبع، سيكون هذا أهم ما سأتذكره».

أطرق جوليو رأسه: «كنت أعرف أنك سترين الأشياء كما أراها».

نظرت إليه نظرة تقييم: «حقاً؟ قل لي سنيور، هل لك صلة قربى بأسرة ريتشي؟».

التوى فمه: «من ناحية والدتي فقط سنيورا، لماذا السؤال؟».

هزت كتفيها: «لأنهم كانوا رجالاً قساة، لا يرفض لهم طلب في أيامهم، وأنت هكذا يا كونت فالكون».

ابتسم بذكرها بقوة جاذبيته: «إذن لا ترفضي لي أمراً، فأنا لا أستخدم لغتي إلا إذا كنت مضطراً.. نادني جوليو».

وعلقت أنفاسها في حلقها، أوه لا، هذه دعوة حميمة ليست بحاجة لها.

فقالت، بصوت مرتفع: «لست أدري ما أقول، أو ما أفعل».

ـ إذن اتبعي غريزتك، كولومبينا.

لكن غريزتها كانت تحثها على الخروج من هذا المنزل والابتعاد ما أمكن، عن هذا الرجل، وعن ابتسامته، وعن سحره الذي كان يعطي تأثيره، وعن جاذبيته التي تحول دمها إلى عسل دافىء في شرايينها.

وردّت بهدوء: «حسن، سأبقى حتى تجد شخصاً آخر».

ازداد عمق ابتسامته بنصف سخرية: «غراتزيا لوسيا، والآن أقترح تغيير هذا الفستان، قبل أن أنسى وعدي والتزامي معك».

ثم رفع يده إلى شفتيه ونفخ لها قبلة تسلية، وخرج من الغرفة.

وراقبت لوسي الباب يقفل خلفه، وقالت بصوت مرتفع «نذل».

كان أول عمل لها بالطبع، إيجاد غرفة أخرى. واختارت غرفة في أبعد طرف من المنزل.

وقالت لنفسها ساخرة وهي ترى مدى صغر الغرفة: إنها مناسبة تماماً لإقامة خادمة على أي حال.

ما زالت نبضاتهامتسارعة فهي لم تصدق أنها سمحت لنفسها

بالرضوخ بسهولة.. كيف أمكنها الظن، ولو للحظة، أن شخصية مثل الكونت جوليو فالكون قد يفكر بشيء نحوها؟

المشكلة أنها في كل من مقابلتيهما السابقتين، كانت في وضع غير مناسب، وهذا ما عطل المنطق عندها.

كانت لا تزال غير واثقة لماذا وافقت على البقاء، ولكن ليس هناك بديل، إنه رجل ثري وله سلطة، قد يكون قاسياً دون رحمة.

وواست نفسها: لن يكون هذا لوقت طويل، ما من شك أن شقيقته ستجد مربية بديلة من وكالة محلية حين تستعيد وعيها من الصدمة.

الآن، ستخلع هذا الفستان اللعين.

تلوت لوسي تبحث بيدها عن السحاب وتشده إلى الأسفل، لكن لم يحدث شيء.

وبتنهيدة إحباط قررت قطع السحاب.

كانت تبحث عن مقص الأظافر حين سمعت دقاً حاداً على الباب، ودخل جوليو فالكون.

نظر حوله: «إذن هذا هو الملاذ الذي اخترته، إنه ضيق قليلاً ألا تعتقدين هذا؟».

ردت ببرودة مصطنعة: «أظنه مثالياً».

هز كتفيه: «كما تشائين، لكن لماذا لم تستعدي حتى الآن؟ كنتُ سأرشدك إلى مكان الملاءات النظيفة».

قالت بحدة: «أرشدني إلى مكانها، وسأجدها بنفسي».

ـ هل هناك مشكلة؟

استقامت، والمقص في يدها: «ليس شيئاً لا أستطيع التعامل معه».

نظر إلى المقص نظرة غموض: «إذا كنت بحاجة إلى الدفاع عن نفسك، فالسكاكين في المطبخ قد تفيدك أكثر».

ردت بغضب: «لا شيء من هذا، سحاب الفستان عالق».

ـ إذن، اسمحي لي.

واستدار حولها ليصبح ظهرها نحوه.

وأجفلت: «أستطيع تدبير أمري».

ـ قفي دون حراك.

كانت أنفاسه حارة على بشرتها وهو ينحني إلى الأمام، وتمتم: «هناك خيط عالق فيه، وأعتقد أنني قادر على تخليصه».

انتظرت لوسي متشنجة، تحاول ألا تجفل وهو يمد يده لتحرير الخيط العالق وأحس بذلك فقال يؤنبها بنعومة وبنبرة ساخرة: «لا تكوني متوترة الأعصاب هكذا، فهذا أفضل بكثير من مهاجمة ظهرك بمقص».

كان قريباً جداً منها.. أرادت تجنبه. ففي المرآة على الجدار، رأت وجهه الأسمر المصمم، على مقربة منها، ووجدت نفسها تتذكر بوضوح عناقه، وجرفتها موجة شوق لم تستطع السيطرة عليها أو إعطاء عذر لها.

قالت بصوت أجش: «هل يمكن أن تسرع، أرجوك؟».

ـ أنا أحاول أن أكون حذراً، لا أريد الإضرار بالقماش.

ـ لا يهم..

وبللت شفتيها الجافتين بطرف لسانها: «.. لن أرتديه مرة أخرى».

هز كتفيه: «حقاً؟ في هذه الحال..».

وأمسك أطراف ياقة الفستان بيديه، وشدهما بحدة، فتعالى صوت تمزق حاد مرتفع، ثم هوى القسم العلوي من الفستان، عن كتفي لوسي.

كانت لوسي مصدومة وظلت ثواني دون حراك، ثم صرخت صرخة رعب وإحراج، واختطفت القماش الممزق ورفعته على كتفيها وصدرها.

تراجع جوليو فالكون إلى الوراء، يراقب كفاحها، والتسلية تتراقص في عينيه الكهرمانيتين، بالإضافة إلى شيء أكثر عمقاً وأكثر خطورة.

ـ كيف تفعل هذا؟ يا إلهي، كيف تجرؤ على فعل هذا؟

ـ لقد اتبعت فقط تعليماتك، ولا يمكن لومي إذا جاءت النتيجة مغايرة.

كانت على وشك ذرف دموع الإحراج: «اخرج من هذه الغرفة. ابتعد

عني، كان يجب أن أعرف بأنني لن أستطيع الثقة بك».

قال بصوت عنيد: «إذن أنت مخطئة، فلو كنت ذلك النذل الذي تصورته، لكنت الآن في الفراش معي».

صمت مرة أخرى، والتوى فمه: «وسأقنع نفسي ميابيلا، أنك لا تملكين بشرة مثل ضوء القمر، وسأنزل إلى الطابق السفلي، لأصنع القهوة، فإذا أردت بعضها، فانضمي إلي».

أحنى رأسه تحية، وخرج.

ارتمت لوسي على حافة السرير، كانت واثقة من أمر واحد. لن تستطيع المخاطرة بالبقاء في ڤيلا دانتي، يجب عليها الرحيل.

رفعت رأسها تنظر إلى المرآة، وكأنها رأت شخصاً غريباً مشعث الشعر مرتبك العينين.

«بشرة كضوء القمر» الكلمات التي تذكرتها أرسلت رجفة شوق مؤلمة في جسمها.

وراحت تدعو ربها: يا رب دع هذه الليلة فقط تمر بسلام.

***

٣ ـ سجن بلا باب

قالت لوسي لنفسها بكل تصميم وعزم: «العمل، والمزيد من العمل، هذا هو الرد. سأبقى مشغولة، وابتعد عن الإزعاج».

جوليو فالكون لا يمكن وصفه بأي شيء بريء مثل الإزعاج فهو رجل خطير. ثم ارتدت بنطلوناً محتشماً نسبياً بلون أخضر وقميصاً مماثلاً، بعد أن رمت الفستان الأحمر إلى زاوية الغرفة.

بالبقاء مشغولة، يمكنها أن تمنع نفسها من التساؤل عن فالكون، ومتى وصل أولاد أخته امتلأ وقتها.

وجدت كل المفارش النظيفة والمناشف في خزانة ضخمة على رأس السلم. كانت الغرف الأخرى التي استخدمتها رفيقاتها، تبدو وكأن إعصاراً اجتاحها، والأسرّة غير مرتبة.

كانت المناشف المبللة تزين الحمام، وآثار البودرة عليها، وكان هناك لطخات «جيل» للشعر، ومعاجين مرطبة على المرآة والبلاط.

وصرّت على أسنانها وشرعت تعمل على تنظيف الغرف وكانت معظم الأوساخ متأتية من مساحيق التجميل. لحسن الحظ، لم يشغلن الڤيلا لوقت أطول.

غرفتها، وصححت لنفسها: غرفته، تركتها إلى الأخير. وقفت خارجها للحظات طويلة، مترددة بالدخول بشكل غريب، ثم استجمعت قواها وفتحت الباب.

كانت الغرفة فارغة وأكثر ترتيباً من الغرف الأخرى، وأحست أنها

مسرورة لهذا.

كانت النافذة الطويلة مفتوحة على الليل، وتيار هوائي خفيف ينفخ الستائر إلى داخل الغرفة. تقدمت إلى النافذة، تنوي إقفالها، وتوقفت تتطلع إلى السماء الزرقاء المتلألئة بالنجوم.

وتذكرت كلمات فالكون: «بشرة كضوء القمر..» وبدا لها أن صدى الكلمات يتردد في رأسها.

وجمدت للحظة. ثم رجعت إلى واقعها بارتجافة خفيفة وهي واعية أكثر من ذي قبل للصمت الليلي الذي يلفها.

أقفلت النافذة، وفيما كانت تشد القفل، رأت طيفاً ينعكس في الزجاج خلفها، ويتحرك في الغرفة.

اختنقت صيحة الذعر وهي تستدير، ودفعت كومة المفارش التي جمعتها إلى الأرض فانتشرت الشراشف وأغطية الوسادات أمام قدميها.

قال جوليو بصوت ملؤه التسلية: «أنت متوترة الأعصاب جداً».

ردت غاضبة: «ألا تتساءل عن السبب؟ أتمنى ألا تتسلل خلفي هكذا».

رفع حاجبيه وقال بتكبر ملحوظ: «لقد صعدت إلى هنا بالطريقة العادية. أما أنتِ فتبدين ضائعة في أفكارك».

ـ أجل. حسن جداً، لدي أشياء كثيرة أفكر بها. والآن، يجب أن أتابع عملي.

تحركت متعمدة إلى طرف السرير، وبدأت تنزع الشراشف.

قال: «يمكنك ترك هذا».

ـ الأسرّة لا ترتب نفسها.

الابتسامة الخفيفة التي كانت تتلاعب على شفتيه ازدادت عمقاً وهو يراها تستقيم ببطء وترسل إليه نظرة تساؤل، وقال: «إذن دعيها تبقى كما هي. أتظنين، ميا بيلا، أنني قد أعترض على النوم مع عطر بشرتك، ورائحة شعرك على وسادتي؟».

وعلا الغضب والاحمرار وجهها مرة أخرى، وقالت مدعية الهدوء:

ـ لقد أعطيتني عملاً أقوم به سنيور، وهذا جزء منه.

قال آمراً: «إذن يجب أن ينتظر. القهوة جاهزة، ولقد حضرت بعض الطعام لنا أيضاً».

اتسعت عينا لوسي: «وهل تجيد الطبخ؟».

قال بقليل من نفاد الصبر: «لست الأرستقراطي العاجز الذي تظنينه. لقد علمتني السنين، أن أكون مكتفياً ذاتياً أستطيع ترتيب سريري بنفسي. فهيا، تعالي الآن لنشرب القهوة ونأكل».

اعترضت: «لكن كيف تتناول وجبة في منتصف الليل؟».

ـ ولمَ لا؟ إذا كانت الشهية موجودة، يجب إرضاؤها، ألا توافقينني على هذا؟

واجتاحتها العينان الكهرمانيتان.

عضت لوسي شفتها، وافترضت أن لا علاقة كبيرة للسؤال بالطعام، وأنه يتعمد إثارتها مجدداً. لكن تحديه قد يقودها دون شك إلى مياه عميقة، وربما سيجعلها تبدو سخيفة فصمتت.

ولحقت به على مضض إلى الأسفل، وهما يمران بباب غرفة الطعام رأتها قد عادت إلى بريقها الرائع السابق.

صاحت بدهشة: «أوه! كنت أنوي فعل هذا لاحقاً».

ـ والآن لم يعد هناك داعٍ. على أي حال، أرجو ألا تمانعي الأكل في المطبخ.

قالت ببرود: «بل أفضل هذا. أليس المطبخ هو مكان الخدم؟».

وسجلت تقطيبته السريعة، برضى داخلي.

لكن فمها انفتح حين رأت البيض المخفوق الذي حضره، وشرائح اللحم، والطماطم مع البهارات والجبنة... الواضح أنه استخدم كل شيء في البراد حتى المرطبات.

احتجت وهو يضع الطبق أمامها: «لا أستطيع تناول كل هذا، سأبقى

مستيقظة طوال الليل . . .».

وتلاشى صوتها حرجاً مع ارتفاع حاجبيه البنيين بارتياب ساخر: «أتظنين هذا؟ حسن جداً، كلي على أية حال، لتبني قوتك قليلاً، لانك بحاجة للمزيد من القوة».

وبدا أن الكلمات معلقة في الهواء بينهما، نصفها تهديد ونصفها وعد. وأجفلت لوسي: «هل لي أن أسأل لماذا؟».

أمسك شوكته: «لتتعاملي مع ماركو وإميليا بالطبع، وما غير هذا؟».

بدا أن ابتسامته تسخر منها، ولو لم تشعر فجأة بالجوع الشديد لرمت الطبق المليء بالبيض في وجهه، لكنها قررت بدلاً من هذا، ملاحقة موضوع مسؤوليتها القادمة، فهذا أكثر أماناً.

ـ هل هما سيئان إلى هذا الحد؟

فكر جوليو فالكون لحظة: «ليس كثيراً بالنسبة للدلال المفرط. سيرجيو، والدهما، هو نظامي العائلة، لكن عمله يبعده كثيراً وهذا للأسف يترك الولدين لرحمة فياميتا الرقيقة».

ثم تنهد: «يجب أن تفهمي، إنها كسولة بقدر ما هي فاتنة، وهي عرضة كذلك للتأثير الخارجي».

ارتفع حاجبا لوسي: «هذا قول غريب عن شقيقتك».

ـ آه، لكنها ليست شقيقتي المباشرة، إنها ابنة زوجة أبي الثانية.

استوعبت لوسي هذا وهي تلتهم طبق البيض اللذيذ.

ـ بكلمات أخرى، أختك بالتبني.

هز رأسه: «سي».

ـ إذن، الكونتيسة التي ذكرتها هي في الواقع أرملة أبيك؟

ـ أجل.

كانت الكلمة قارسة، فاستنتجت لوسي أن الحب مفقود بينه وبين زوجة أبيه، وقالت: «وهل ستأتي إلى هنا أيضاً؟».

ـ لا، فهي تعيش في روما معظم السنة.

ثم أضاف دون عاطفة: «إنها تسأم هذا المكان، ولا تزوره إلا بقدر ضئيل قدر المستطاع».

فقالت لوسي: «وكيف لأحد أن يكره هذا المكان؟ إنه كالجنة».

هز جوليو فالكون كتفيه: «هناك وجهان لقيلا دانتي، بالنسبة لك هي «الجنة»، أما بالنسبة لكلوديا فهي «بوابة جهنم».

فقالت لوسي: «مع ذلك فسيارة الفيات لها، أنت قلت هذا».

ـ إنها بمثابة وسيلة هرب. تبتعد فيها عن حياة الريف، لتزور أصدقاء لها في فلورنسا وسيينا.

وسمعت لوسي لمحة الازدراء في صوته.

ـ لا يمكننا جميعاً أن نحب الأماكن ذاتها أو الأشياء ذاتها..

أصبح الوجه الأسمر كئيباً: «كان هنا أفضل ملاذ لأبي، إلى أن دخلت كلوديا حياته».

قالت لوسي مترددة: «إذا كانت زوجة أبيك تحب الناس، والرفقة، أستطيع أن أرى لماذا لا يكون هنا ملاذ لها».

نظر إليها باكتئاب: «وماذا تعرفين أنت عن الحاجة إلى ملاذ؟».

تمتمت: «أعرف أكثر مما تظن».

وأحست بعضلات حنجرتها تشتد دون سيطرة عليها.

ساد صمت قصير، ثم مد جوليو فالكون يده عبر الطاولة، يمرر إصبعه على الأثر الأبيض على إصبعها، حيث كان خاتم فيليب، وكانت لمسته خفيفة بعثت رجفة خفيفة سرت في أعصابها.

سأل بهدوء: «مم تهربين يا صغيرة؟ زواج تعس؟».

هزت لوسي رأسها بقوة: «لا. نحن، لم نصل إلى هذا الحد».

تمتم: «وماذا حصل؟».

ابتسمت ابتسامة مؤلمة صغيرة: «التقى امرأة أخرى، امرأة لديها الكثير مما تقدمه له».

ـ وهل قال لك هذا؟

ـ ليس بكلام صريح . . لكنني استنتجت ذلك من تصرفاته .

ـ أما زلت حزينة؟

وتساءلت في نفسها : أما زلتُ حزينة؟ فجأة لم تعد واثقة . بدا لها أن فيليب ينتمي إلى زمن مختلف .

فجأة انتزعت يدها : «بالطبع ، كان هذا ، جزءاً من حياتي» .

قال بنعومة : «غير مهم ، فبضعة أسابيع مع شمس توسكانا ، ميابيلا ، وسيختفي ذلك الجزء نهائياً» .

دست لوسي يديها في حجرها تحت حافة الطاولة ، وهي تشعر بتسارع نبضاتها وتفكر بأنها إذا لم تكن حذرة ، فقد تترك توسكانا وهي لا تحمل علامة فحسب ، بل ندوباً لا تندمل ، فالألم الذي سببه لها فيليب هو مجرد وخز دبوس مقارنة مع ما قد يحدث لها هنا .

أخذت نفساً : «لنعد إلى موضوع الولدين . ألن يكون هناك مشكلة لغة؟ فأنا لا أجيد اللغة الإيطالية» .

لوح بيده صارفاً النظر : «لا يهم ، فكلاهما يتكلم لغتين . لقد أمضيا وقتاً طويلاً من طفولتهما في انكلترا ، ولقد أصر سيرجيو أن يتكلما الإنكليزية كلغة أساسية» .

ـ فهمت .

يبدو أن ماركو وإميليا ولدان شقيان ، لكنها قررت تغيير الموضوع ، وقالت بأدب : «إنكليزيتك جيدة جداً سنيور» .

فقال بابتسامة : «يمكن أن تتحسن ، ويجب أن تتحسن ، لأن الكثير من أعمالنا المصرفية تجري في بلادكم ، وأنا كذلك ، عشت هناك لفترات مختلفة طوال حياتي . لكن ، ليس مؤخراً ، وإلا لكنا التقينا قبل هذا» .

وأحست لوسي بانقطاع أنفاسها . لكنها تمكنت من إبقاء صوتها ثابتاً : «لا أعتقد هذا ، نحن نتحرك في عالمين مختلفين» .

هز رأسه اعترافاً : «لكن العوالم قد تتصادم أحياناً أو تتعارض لوسيا . ألا تؤمنين بقوة القدر؟» .

ـ بل أفضل أن التزم العالم الواقعي .

ـ إذن ، أخبريني عن الجانب العملي من عالمك ، هل لديك عمل؟

ـ أجل ، لقد درست تصميم الغرافيك ، وأعمل الآن في مجال الإعلان .

ـ وما اسم شركتك؟

وحين أجابته رفع حاجبيه احتراماً : «هذا مؤثر لوسيا ، لكن ألا تظنين أنه من الممكن مجيء أحد أعواني أو أحد المتعاونين معنا إلى مؤسستك للإعلان عن خدمات تقدمها؟» .

ابتسمت : «أظن أن هذا غير محتمل سنيور ، وغير ضروري أبداً» .

ضحك جوليو فالكون .

ـ يمكن أن تكوني على حق ، لذا دعيني أكون عملياً مرة أخرى . لقد أصبحت إنكليزيتي صدئة ، قليلاً ، هل هذه هي الكلمة الصائبة؟ ربما تستطيعين إعطائي بعض الدروس .

رفعت لوسي ذقنها : «أشك أن أكون قادرة على تعليمك شيئاً سنيور . والأهم أنني سأكون مشغولة جداً مع ماركو وإميليا» .

دفعت كرسيها إلى الوراء ووقفت : «والآن من الأفضل أن أنال شيئاً من الراحة ، أمامي يوم كبير غداً» .

وقف جوليو فالكون بكل كياسة .

ـ نامي جيداً لوسيا . .

ولحق بها صوته وهي تتجه إلى الباب : «. . لكن تذكري : لقد وضعك القدر في عالمي الآن ، ولا مكان لك تهربين إليه» .

ولم تكن هذه فكرة تغري بنوم مريح .

أقفلت باب غرفتها وراءها بقوة واستندت إليه ، وقد اغرورقت عيناها بدموع مفاجئة .

وقالت بصوت أجش مرتفع : «اللعنة عليه» .

ورغم هواجسها ، غفت لوسي ما إن لمس رأسها الوسادة .

حين استيقظت في اليوم التالي، كانت أشعة الشمس تتدفق بدفء عبر فتحة في درفات النافذة. للحظة، أحست بضياع كامل، ثم عادت ذاكرتها فجلست.

رباه لقد نمت كثيراً.

أخذت ساعتها عن طاولة السرير، فرأت برعب أنها تجاوزت العاشرة.

رمت بقدميها عن السرير إلى بلاط الأرض. فكل ما تأمله أن يكون مخدومها الأرستقراطي المستبد يغط في النوم.

استحمت بسرعة، ثم فكرت ماذا في خزانة ثيابها المحدودة مما يمكن اعتباره مناسباً لمربية بديلة. في النهاية، استقرت على تنورة «دونيم» قصيرة مزررة، وفوقها بلوزة بيضاء، مجوفة الياقة دون أكمام.. مشطت شعرها إلى الوراء بشدة، ثم ثبتته عند مؤخرة عنقها بملقط عريض من عظم السلحفاة.

وهي تمر بغرفة جوليو فالكون، رأت الباب مفتوحاً، والسرير فارغاً.

كانت تتوقع تعليقات ساخرة، أو حتى توبيخ ناعم حين وصلت إلى الطابق الأسفل. لكن، ويا للدهشة لم تجد له أثراً، وبدا المكان مهجوراً.

صبت لنفسها بعض عصير الفاكهة من إبريق زجاجي في البراد، وأخذت ترتشفه ببطء، وهي تستند إلى إطار الباب الخلفي، تتطلع إلى الخارج؛ إلى الفناء الذي يحوي المرآب. ولم تكن سيارة جوليو فالكون مرئية، إلاّ أن سيارة الفيات كانت تنتظر في مكانها المعتاد.

نظرت مرة أخرى إلى الفيات، وأخذت نفساً عميقاً، حسن جداً لم لا؟ لقد اختفى سجانها، وترك باب السجن مفتوحاً، فلماذا البقاء لحظة أطول مما هي مضطرة له؟ لماذا تحمل عبء كل شيء في وقت هربت فيه رفيقاتها؟

ليلة أمس، كانت منوّمة مغناطيسياً تقريباً تتقبل شروطه. لكن، الآن، هي في وضح النهار ومستيقظة تماماً، ومستعدة للقتال، للهرب، فلا بد أن

تجد مكاناً يمكن الهرب إليه في مطلق الأحوال.

وبإمكان الكونت النبيل ببساطة إيجاد غيرها ليعتني بشقيقته الفاتنة وبالمتوحشين المدللين.

قالت بصوت مرتفع: «سأعود إلى وطني، فأنا الآن قادرة على ذلك».

وقفت على رأس السلم، وضربات قلبها تتسارع، وأذناها مصغيتان إلى أية حركة تدل على عودته. لكن لم يكن هناك سوى الصمت، ونزلت إلى الطابق السفلي على أطراف أصابع قدميها وخرجت إلى المرآب.

لدهشتها وجدتها مقفلة. لا أذكر أنني أقفلتها... وفتشت في حقيبتها عن المفاتيح. ونظراً لعزلة الڤيلا، لم يبدُ لها الأمان مسألة ضرورية.

لكنها لم تجد المفاتيح. وبتوتر، أفرغت حقيبتها على مقدمة السيارة وفتشت المحتويات، لكن، تذكرت أن نينا هي التي قادت السيارة بالأمس بعدما تعرضت هي للسلب.

تأوهت في نفسها، أوه، لا. وفكرت مجدداً، تحاول أن تتذكر حين ذهبت رأساً إلى غرفتها، غرفته، وكانت نينا معها. إنها متأكدة أن نينا رمت بالمفاتيح على طاولة الزينة، وتكاد الآن تسمع صليل المعدن والمفاتيح تنزلق فوق سطح الطاولة المصقول.

إذن، فهناك فرصة فقد تكون هناك، ولعل جوليو فالكون لم يعثر عليها. لقد كان متعباً جداً ليلة أمس، وهذا الصباح، كان مشغول البال بأمور أخرى.

على أية حال، المسألة تستحق إلقاء نظرة. خبأت حقيبة ملابسها وراء وعاء حجري كبير تتدفق الزهور منه، وركضت عائدة إلى المنزل، تصعد السلم درجتين معاً.

من نظرة واحدة إلى طاولة الزينة عرفت أن تفاؤلها لا أساس له. إذ كان السطح خالياً تماماً.

وكادت لوسي تصرخ بحدة وإحباط لكنها ناشدت نفسها الهدوء. ربما لا تزال هنا، في درج ما، ربما.

وبحماس، فتحت الدرج الأعلى وفتشت محتوياته.

دفعت خصلة شعر عن جبهتها وهي تفكر بالموقف، من الممكن أن تكون المفاتيح قد رميت دونما اكتراث فانزلقت ووقعت في الفجوة ما بين الطاولة والجدار.

وبجهد كبير حاولت إبعاد قطعة الأثاث الثقيلة كي تتمكن من النظر خلفها. فلم تفلح، فركعت على ركبتيها، تلهث وتمد عنقها إلى الأمام محاولة النظر تحت الطاولة.

لكن صوتاً مألوفاً قال لها: «تفتشين عن الغبار؟ كم أنت مثالية ميابيلا».

قفزت لوسي بعنف، واستقامت تكتم صيحة ذعر وهي تضرب رأسها دون وعي بمقبض الدرج.

وفكرت وهي تشعر بالغثيان، أوه، يا إلهي! لماذا لم تسمعه يعود؟

قالت من بين أسنان مشدودة، تقاوم اندفاعاً لتلمس المكان المتألم من رأسها: «هذه ثالث مرة تخيفني فيها سنيور حتى الموت».

ـ وهذه ثالث مرة أجدك في غرفتي، وسأبدأ الظن لوسيا، أنك لا تستطيعين الابتعاد.

وقفت لوسي على قدميها تحدق به: «إذن، أنت مخطىء».

نظرته إلى معصمها الفارغ أعطاها إلهاماً: «في الواقع كنت أبحث عن ساعتي، فكرت أنني تركتها هنا».

دخل الغرفة، وقال: «آسف.. لا».

ثم نظر إليها دون ابتسام: «أعتقد أنك كنت ترتدينها ليلة أمس».

ـ أوه، حقاً؟ لست متأكدة.

زاد تفحصه لها، وقال: «هل آذيت نفسك الآن؟».

ـ أبداً.

وهي تعرف أنها تكذب، ففي الواقع كانت تشعر بتورم بجانب رأسها، إلا أنها بابتسامة مشرقة قالت:

ـ حسن جداً، سأذهب لأتابع البحث في مكان آخر.

كان عليها أن تمر به لتصل إلى الباب، فأطبقت يده على ذراعها، ليوقفها دون جهد.

قال بهدوء: «لم أقصد إجفالك، ولهذا أعتذر. لقد خرجت باكراً، لأطلب من زوجة فرانكو، تيريسا، أن تطهو لنا مؤقتاً».

صمت قليلاً ثم أضاف بابتسامة خفيفة: «ظننت أنني سأعود قبل أن تستيقظي».

رفعت لوسي ذقنها، وقالت ببرود: «آسفة لانني سببت لك المتاعب سنيور، لن يحدث هذا مرة أخرى، وإذا أردت حدد لي وقتاً للبدء في واجباتي، وسأكون متأكدة من استيقاظي باكراً للبدء بالعمل».

زاد عمق ابتسامته: «ولماذا الغضب؟ فأنا لستُ أول رجل يراك وأنت في الفراش».

ردت بصوت متحجر: «ليست هذه هي المسألة، فأنا أقدر خلوتي حق قدرها».

هز كتفيه، وتلاقت عيناه الكهرمانيتان بعينيها في مواجهة مثيرة للأعصاب: «إذن عليّ احترام خلوتك. أعدك، كولومبينا بأنني لن أدخل غرفة نومك مرة أخرى، دون دعوة. هل هذا ما تريدينه؟».

أجبرت لوسي نفسها على النظر إلى الباب المفتوح، وقالت:

ـ أعتقد أن هذا يكفي، والآن هل لي بالذهاب أرجوك؟

تابع كلامه بنعومة: «من ناحية أخرى، لكِ كامل إذني في دخول غرفتي متى شئت، والبقاء فيها، قدر ما ترغبين».

ثم سار نحو طاولة الزينة: «أرجو أن تجدي ساعتك، من المزعج البحث والبحث دون طائل».

بإحساس مخدر، راقبته لوسي يخرج مفاتيحه من جيبه، ثم مفاتيح الفيات. وهو يرمقها بابتسامة، ثم رمى الكومتين في الهواء والتقطهما قبل أن يرميهما دون استعجال في الدرج الأعلى، وأدركت لوسي أنه يراقب ردة

فعلها المذهولة في المرآة.

قال ساخراً: «قبل أن تتابعي بحثك، هل لي باقتراح كيس من الثلج للضربة على رأسك لوسيا؟».

وصمت قليلاً: «مَن يعلم؟ قد يهدىء أعصابك أيضاً».

ولحقت بها ضحكته، حتى وهي تنزل على الممر إلى غرفتها، الملاذ الهش والآمن لها حالياً.

***

٤ ـ بدأت المعركة

جوليو فالكون ثعبان غادر، نذل مخادع متآمر، يسبقها بالتفكير والمناورة طوال الوقت. ويجعلها تبدو غبية بالكامل، لكم تكرهه.

وهذا، بكل تأكيد، تصرف أكثر أماناً من استجابتها السابقة الساذجة لجاذبيته. والعمل الجاهد وحده لا يكفي للدفاع ضد الابتسامة الدائمة على زوايا فمه، والنار الكهرمانية التي تتوهج في عينيه غير العاديتين.

أفرغت حقيبتها على السرير وفتشت محتوياتها ببطء وانتظام، تحسب كم معها من «لير»، وشيكات سياحية. وكانت رخصة قيادتها في محفظتها، ربما تستطيع، تقريباً، تحمل أجرة سيارة لتوصلها إلى المطار. لكن، أين ستقيم إذا لم تجد رحلة فورية؟ وإلى متى تستطيع تدبير نفسها؟

بدأت الأسئلة تتلاحق في رأسها، كم كانت غبية لأنها لم تجلب معها بطاقة الاعتماد.

فتشت في الجيوب الأخرى للمحفظة، في حال دست فيها بطاقة الاعتماد في آخر لحظة، لكن كل ما وجدته، كان وصلاً، وبطاقة مكتب، وفي مكان خفي، صورة مدسوسة لفيليب.

أخرجتها ونظرت إليها بهدوء. منذ شهر، كان مجرد النظر إليها سيدمرها. لكنها الآن تجلس وتتفرس بها بطريقة موضوعية تماماً، إنها صورة التقطتها له خلال العطلة البحرية. وقتها كان يستند إلى الحاجز، يبتسم للكاميرا، لكنه كان ينظر إلى أبعد منها، وليس إليها، كان يركز نظره على أفق مختلف، وهي الآن أدركت كل هذا بوضوح.

لقد كنت دائماً أجرجر أذيالي وراءه، ولم أكن يوماً إلى جانبه، كما يجب أن أكون، وكما أريد أن أكون. أخذت نفساً عميقاً، ومزقت الصورة نصفين ورمتها في سلة المهملات.

قرع الباب أوقفها دفاعياً على قدميها، ولا داعي للسؤال من الطارق، طبعاً. قالت: «سي؟».

ـ شقيقتي هنا لوسيا. هل تأتين معي لمقابلتها؟.

عندما شعر بترددها أضاف: «أرجوك تذكري رغم غضبك أن الولدين أصيبا بخوف مريع، ويحتاجان إليك».

أسرعت إلى الباب تفتحه بحدة ثم قالت ببرودة بالغة: «هذا نوع مخجل من المناورات».

رفع يده وقال دون أثر للأسف في صوته: «مي ديسبياس. لكنني اتهمت بأشياء أسوأ من هذه، والآن توقفي عن الحرد أرجوك، وتعالي إلى الأسفل».

ارتدّ مبتعداً، وتقدمت لوسي بغضب خطوة إلى الأمام. لكن لتصدم عظمتي ساقيها بحقيبة ملابسها، التي بدت وكأنها هجرت مخبأها وراء مسكبة الزهور، في موقف الفيات لتقف الآن بكآبة خارج بابها.

تباً له.. حين وصلت السلم، بدا لها أن الردهة في الأسفل مليئة بالناس والأصوات. كان هناك سائق بلباس رسمي، يُدخل ببرودة متاعاً أكثر مما رأته لوسي في حياتها. وكان هناك فتاة شقراء طويلة، ترتدي ثياباً غاية في الأناقة. وكان هناك صبي بشعر أسود مجعد يثب في المكان ويصيح، وفتاة أكبر منه بقليل، تبكي.

كادت تصطدم في سيرها بالكونت، الذي توقف في منتصف السلم، جامداً وكأنه تحوّل إلى حجر، يتطلع فوق كل هذه الفوضى نحو الباب المفتوح، حيث رأت لوسي بخوف، أن هناك وافداً جديداً.

كان الوافد امرأة أكبر سناً بكثير، نحيلة كعود كبريت، ترتدي ثياباً أنيقة، شعرها الفضي ممشط بشكل رسمي لا عيب فيه.

قال جوليو فالكون بصوت منخفض: «كلوديا».

ـ تشي سوربريسا.

ابتسمت تلك المرأة وقالت بصوت كهرير القطط: «عزيزي جوليو، أنا هنا بالطبع لأجل ابنتي».

عينا الكونتيسة، السوداوان، تحوّلنا نحو لوسي. فقالت الكونتيسة بقسوة: «ومن هذه الفتاة؟».

رد جوليو بالإنكليزية، وبلهجة باردة متعمدة: «هذه لوسي وينترز عزيزتي كلوديا، التي وافقت أن تحل مكان اليسون، لرعاية الولدين، والاعتناء بالمنزل لنا، حتى نستطيع القيام بترتيبات أخرى».

رفعت حاجبيها المقوسين: «وأين مادالينا؟».

ـ تركت البيت فجأة.

أصدرت كلوديا فالكون صوتاً ساخطاً: «ألم يكن هناك أية امرأة محلية مناسبة، بدلاً من فتاة إنكليزية؟».

هز جوليو كتفيه مجدداً: «لقد وافقت تيريسا أن تأتي لتطهو لنا. لكن لديها عائلتها لتعتني بها، ولا تستطيع القيام بواجبات أخرى هنا».

بدأت الكونتيسة تقول: «لكن لو دفعت لها..».

وقاطعتها المرأة الأصغر سناً: «ماما، بالطبع نحن بحاجة إلى فتاة إنكليزية، لئلا تنقطع دروس الولدين».

والتفتت إلى لوسي مبتسمة بحرارة: «كيف حالك سنيوريتا؟ أنا فياميتا رينالدي».

إنها حقاً جميلة بشكل فاتن، فهي ذات عينين بنيتين بنفسجيتين، وفم كبير.

قالت فياميتا: «هل يمكن أن أناديك لوسيا.. كانت الساعات الماضية تجربة قاسية».

وجاء صوت الكونتيسة، مشبعاً بالصدمة: «بل أكثر من أن يكون تجربة. كان يمكن للحادث أن يكون، مأساة فظيعة. حياة حفيدي الصبي

الوحيد كانت في خطر».

رأت لوسي الفتاة الأكبر تجفل عند سماع جدتها ووجهها الناضح بالدموع متألم وعدواني، ومن هذه الحركة عرفت لوسي، أن الفتاة لا تحب كلوديا فالكون.

قالت لوسي بأدب: «إذن، لم تكن حفيدتك في السيارة ذلك الوقت، كونتيسا فالكون، هذا كان حظاً طيباً».

ولفّ كلماتها صمت متوتر مفاجيء لم يقطعه سوى صوت الصبي: «إيميليا كانت في السيارة، لكنها بكت، ولم تكن شجاعة مثلي، واليوم هي مريضة».

وبعد أن أعطى انطباعاً ساخراً لاضطراب شقيقته انفجر ضاحكاً، وبدأت إيميليا تبكي مجدداً بصوت مرتفع، واستدارت الجدة عنها بوجه جامد.

عضت لوسي لسانها بجهد، مقررة أن الوقت حان للتدخل بشكل مناسب فكان أن نزلت السلم إلى جانب الكونت، ولامست ذراعه.

وقالت بهدوء: «ربما تأخذ السيدتين إلى السالاتو سنيور، بينما أهتم أنا بالولدين.. إيميليا على الأقل بحاجة إلى حمام وتغيير ثيابها».

ومدت يدها مشجعة إلى إيميليا، التي تحول نحيبها إلى خوف..

ـ هل نذهب لتكوني مرتاحة أكثر؟

كان وجه الطفلة نكداً ومتمرداً، وانفجرت: «لا، أريد أليسون».

واستدارت نحو جدتها، كأنها تريد دفن وجهها في فستانها، لكن الكونتيسا تراجعت بسرعة إلى الوراء، وتحركت يداها باشمئزاز ورفض.

تحرك جوليو متدخلاً، وقال بلطف، لكن بحزم: «أليسون ليست هنا يا صغيرة، فاذهبي مع لوسيا».

بدا أن إيميليا على وشك نوبة هستيرية: «لن أذهب، لن أذهب.. لا تستطيع إجباري!».

ـ أتعتقدين هذا؟

ورفع الفتاة بين ذراعيه، وجعل الأمر كلعبة، بغض النظر عن الحالة التي هي فيها، ثم صعد بها السلم، ولحقت به لوسي.

حمل الطفلة إلى غرفته مباشرة، ووضعها في حمامه الخاص، وراح يمرح معها.

ـ ها أنتِ كارا، كل شيء سيكون أفضل قريباً.

نظر إلى لوسي بحاجبين مرتفعين: «تستطيعين تدبير الأمر؟».

كان هذا تصريحاً لا سؤالاً، وهزت رأسها إيجاباً، وأخذت نفساً: «شكراً لك، كان هذا لطفاً منك».

وأضافت لنفسها بصمت: غير متوقع أبداً.

هز كتفيه: «كان يجب أن يفعل أحد هذا».

بدأت لوسي في إدارة الماء في المغطس، وقالت له بابتسامة: «على الأرجح ستحتاج تغيير ثيابك كذلك».

أكد ساخراً: «بكل تأكيد».

وعاد إلى غرفة النوم، حيث وقف ينتقي قميصاً من «الخزانة».

أحست لوسي فجأة، أن نظرتها كانت تلاحقه. وكأنها تحاول التمتع بكل حركة يقوم بها، وخنقت شهقة وأدارت وجهها نحو إيميليا. تركز اهتمامها على حرارة الماء في المغطس، ممتنة أن جوليو فالكون لم يلحظ بأنها كانت تحدق به ببلاهة كمراهقة متشوقة!

بالرغم من تحذير الخال، لم تمل إيميليا إلى التعاون، وفكرت لوسي وهي تساعدها على خلع ملابسها المتسخة، أنها ليست طفلة جذابة بشكل خاص. كانت نحيلة شاحبة، وجهها حزين، فيه شيء من النكد، وفم صغير مزموم، بدا أن لماركو حصة الأسد من الجمال والرشاقة والدلال، وشكّت لوسي بأن الفتاة دُفعت لتعي هذا تماماً.

بعدما لفتها بمنشفة، أجلستها على السرير، بالرغم من احتجاجاتها، بينما ذهبت إلى غرفتها لتحضر مجفف الشعر.

لدهشتها، وجدت حقيبتها في الممر مرة أخرى. وما أذهلها أنها رأت

عبر الباب المفتوح، امرأة مسنة نكدة المظهر، ترتدي الأسود، وتعلق ثياباً كالحة أخرى في (الخزانة).

أجفلت لوسي، وقالت بأدب: «عفواً أعتقد أن هناك غلطة ما».

مكان الرد تلقت نظرة عدم اكتراث كامل.

حاولت مرة أخرى: «هذه غرفتي».

هزة كتف، وتمتمة «توكابيتشو» كان، الرد الوحيد.

قالت لوسي بصراحة: «هذا ما لا أفهمه».

جاء صوت الكونتيسة من ورائها: «هل هناك مشكلة».

استدارت لوسي مجفلة وقالت: «يبدو أنني أضعتُ غرفتي».

ارتفع حاجبا المرأة المسنة: «غرفتك؟ لكن هذه الغرفة كانت دائماً لخادمتي حين أكون هنا. لأنني احتاجها بقربي، وأنا واثقة أنك تفهمين هذا».

ردت لوسي بلطف: «طبعاً، سأنتقل إلى غرفة أخرى».

تفحصت الكونتيسا أصغر إصبع لها باهتمام مبالغ، وقالت للوسي:

ـ لسوء الحظ، لدي ضيوف سيصلون بعد الظهر وسنحتاج إلى كل الغرف في القيلا. لكن هناك «كاسيتا» في الأرض التابعة للقيلا، كانت تستخدمه مادالينا، وستكونين مرتاحة تماماً هناك.

نظرت إليها لوسي بحدة وقالت: «من المفترض أنني هنا بسبب الولدين وأعتقد أن السنيورا رينالدي سترغب أن أكون قربهما».

قالت الكونتيسة بنعومة: «طبعاً، سيشاركك الولدان في الكاسيتا، إنه تدبير مثالي. ابنتي تحتاج إلى بضعة أيام تقضيها في هدوء تام وراحة، لتستعيد عافيتها من صدمة الحادث، أنها أم ممتازة وكفؤة جداً، لكن الأولاد في هذا السن يمكن أن يكونوا متعبين، ألا تظنين هذا؟».

قالت لوسي وهي ترتجف غضباً: «ومن المفترض أن زوارك لن يتسببوا بأية فوضى للمنزل».

ارتفع حاجبا الكونتيسة بتكبر: «ابنة أخي تزور فلورنس، ومن

الطبيعي أن أرغب في رؤيتها، وكموظفة مؤقتة سنيوريتا، لا يمكنك توقع البقاء تحت هذا السقف والاختلاط على قدم المساواة مع ضيوفنا».

وأضافت مع ابتسامة رقيقة: «مع ذلك، ولنوفر على تيريسا الطيبة المتاعب، سنسمح لك مع الأولاد الانضمام إلينا للطعام».

ثم تطلعت إلى لوسي مطولاً: «في يوم ما سنيوريتا، أنت وأنا، يجب أن نناقش الظروف التي أصبحت فيها مؤهلة لمثل هذه الوظيفة».

التقطت لوسي حقيبتها، وقالت: «أقترح عليك سؤال ابن زوجك كونتيسا».

مشت لوسي في الممر رافعة الرأس لتنضم إلى إيميليا، وأخرجت مجفف الشعر ومحول الكهرباء من حقيبتها، وبدأت تجفف شعر الصغيرة.

قالت لوسي بعد أن انتهت: «والآن، ألا يبدو شعرك جميلاً؟».

نظرت إيميليا إلى صورتها في المرآة بعدم اكتراث: «أنا لست جميلة. سمعت نونا تقول إنني أبدو كأنني طفلة شوارع».

تنهدت لوسي دون صوت، وقالت بلطف: «أنا واثقة أنها لا تعني هذا».

ـ نونا تعني كل شيء تقوله، تريد أن ترسلني ماما إلى مدرسة راهبات فهناك سيضربونني حين أكون مزعجة.

وكان في الصوت الصغير الأجش رنة أسى حقيقي.

قالت لوسي بنشاط: «إذن، يجب أن تكوني حسنة السلوك لئلا يكون هناك سبب لإبعادك».

مدت لوسي يدها إلى حقيبتها، وأخرجت تيشيرت عاجي اللون، بزهور جميلة بالأحمر والذهبي على مقدمته.

ـ إلى حين إيجاد ثيابك، هل تحبين إرتداء هذا؟

نظرت إيميليا إلى القميص من فوق أنفها: «هل هو لك؟».

ـ أجل، لكنني لم ألبسه قط، لذا لن تتلوثي.

وحاولت بخفة ممازحتها: «وهو سيكون قميص نوم جميل، لا يمكنك النوم في منشفة مبللة».

بدا التمرد على إيميليا مجدداً: «لا أريد النوم».

لكن التثاقل في صوتها كان يتحدى كلامها. ودست لوسي القميص من فوق رأس الصغيرة.

ـ تذكري ما قلته لك! عليك أن تكوني حسنة السلوك.

وبعد إظهار مصطنع للتردد قبلت إيميليا الدخول تحت غطاء رقيق، وسألت: «إلى متى سنبقى هنا؟».

ردت لوسي وهي تعيد مجفف الشعر إلى الحقيبة: «هذا عائد إلى ما تقرره أمك».

وأكملت إيميليا: «هذه غرفة زيو جوليو، لماذا أنا هنا؟».

ابتسمت لوسي لها: «لأن غرفنا ليست جاهزة تماماً بعد، سنعيش في منزل خاص بنا على الأرض المحيطة بالڤيلا».

جلست إيميليا في السرير وقالت بصوت غير مصدق: «المنزل الذي كان لمادالينا؟».

قالت ساخرة: «هو بذاته، وسيكون لنا وحدنا».

ـ لكن، لماذا لا نبقى هنا؟

شرحت لها لوسي: «لأن هناك ضيوفاً قادمون، أحد أبناء خالك».

ـ لدي واحدة فقط، أنجيلا.

كبتت لوسي ابتسامة للهجتها الكئيبة، وسألت: «ألا تحبينها؟».

هزت إيميليا كتفيها: «لا يهم أن أحبها، على زيو جوليو أن يحبها».

وبدا أن الكلمات وقعت في صمت ساكن غريب.

أخيراً سألت لوسي: «لماذا؟».

ضحكت إيميليا ضحكة المتفوق: «لأنها الفتاة التي سيتزوجها زيو جوليو، طبعاً».

أحست لوسي فجأة أنها عالقة داخل فراغ واسع. وكأن كل صوت،

كل لون، وكل إحساس، اختفى من العالم، ليتركها مهجورة.

سمعت نفسها تقول: «وهل هما مخطوبان؟».

هزت الطفلة رأسها نفياً: «لا، لكنني سمعت ماما تقول لبابا أن زيو جوليو ينتظرها، لتكبر وتستقر».

نظرت لوسي إلى يديها، كان هناك علامات حمراء من مقبض الحقيبة على بشرتها الناعمة، وفكرت بعذاب، أوه، أيتها الحمقاء، الغبية، البلهاء المثيرة للشفقة.

بصوت مرتفع قالت بهدوء: «حسن جداً، حان الوقت لنستقر معاً، سأذهب لتحضير منزلنا الجديد».

بهزة رأس متذمرة، اندست إيميليا في الفراش ودخلت لوسي إلى الحمام تنظفه، وأقفلت الباب وراءها، ونظرت إلى نفسها في المرآة، ولاحظت شحوبها واتساع عينيها، المجفلتين التعيستين، ثم خاطبت نفسها بصوت منخفض: «حسن جداً، ماذا كنت تظنين؟ تعرفين منذ البداية أنه يسلي نفسه على حسابك، ولقد تأكد لك هذا الآن».

وفكرت بيأس ودعت: يا إلهي لا تدعني أقع في حبه، ليس هذا، أبداً.

الأمر الآن بين يديها، يجب ألا يعرف أبداً، ويجب أن لا تكشف له، بالكلمة أو الإشارة، مدى قدرته على جرحها، وإلا فإن أيامها في ڤيلا دانتي ستكون ممراً إلى الجحيم فعلاً.

سخرت من نفسها بمرارة: وأنا التي اعتقدت أنني استطيع كرهه، وأستطيع جعل كراهيتي له دفاعاً لي.

رتبت الحمّام وكأنها إنسان آلي، دفعت المناشف المستخدمة إلى سلة الملاءات، ومسحت الحمام بكومة محارم ورقية.

لو رحلت الآن، لما تمكن لجوليو فالكون من اللحاق بها لأن وجود خطيبته سيهتم بهذا.

وقالت لنفسها: يجب أن أبقى، يجب رؤيته كل يوم مع أنجيلا هذه، المرأة التي ينوي الزواج بها.

حين عادت إلى غرفة النوم، رأت ايمليا نائمة، فوقفت تتطلع إلى الفتاة الصغيرة، وقد شعرت بالشفقة تجاهلها وهي ترى دمعة واحدة تشق طريقها على الوجه الشاحب الصغير.

أيتها الروح الصغيرة المسكينة، أنا لست التعيسة الوحيدة، اللعنة عليه، اللعنة على كل آل فالكون، بجمالهم وقسوتهم اللامبالية.

لكنني لن أتركهم ينجون بفعلتهم، سوف أبقى هنا، وأقاوم، حتى ولو كانت المعركة الحقيقية ضد نفسي.

ورفعت لوسي رأسها عالياً، ونزلت إلى الطابق الأسفل.

***

لم تجد أياً من أفراد العائلة بادياً للعيان على الفور.

في المطبخ وجدت تيريسا، امرأة كبيرة الجسم مبتسمة، كانت تضرب أواني الطبخ والمقالي بعضها ببعض، وقدمت لوسي نفسها بطريقة واقعية، واستبعدت تدفق الأسئلة من تيريسا، ثم انتقلت بلباقة إلى مكان إقامتها الجديد.

لم يكن ملاذاً واسعاً، ففيه غرفتا نوم وحمام صغير فوق مجموعة سلمات خشبية وغرفة جلوس صغيرة ومطبخ، لكنه سيفي بالغرض المطلوب.

يجب أن يفي بالغرض المطلوب، وصرّت على أسنانها وهي تفكر كيف ستوزع أمكنة النوم.

كانت الأبواب ضيقة، لكن مع الكثير من الجهد استطاعت ترتيب الغرف كما ارتأت.

وجدت مكان الملاءات، وكانت ترتب الشراشف وأكياس الوسائد حين سمعت شخصاً يدخل الكاسيتا بخطوات سريعة قوية وينادي باسمها وعرفته.. للحظة أرادت القفز داخل الخزانة والاختباء.

أخذت ثلاثة أنفاس عميقة مهدئة، ثم سارت بهدوء إلى الطابق الأسفل، وكان يقف ينظر حوله، ويداه على وركيه، ووجهه متجهم.

قالت بصوت بارد: «هل هناك شيء خاطىء سنيور؟».

رد بوجوم على أسلوبها الرسمي: «كل شيء، سنيوريتا. جئت أعتذر لك».

اعترتها الدهشة، لم يكن هذا ما توقعته: «ليس هناك داعي حقاً..».

لكنه قاطعها بلهجة خشنة توضح أنه غاضب: «أنتِ مخطئة لوسيا، لقد طلبتُ منك البقاء هنا لمساعدة فياميتا بالولدين، ولم أكن أتوقع حلول كلوديا علينا، أو أنها دعت ضيوفاً دون استشارتي».

وشدّ على فمه: «ولا توقعت هذا..».

وأشار باشمئزاز حوله: «لا أستطيع أن أعذرها سوى أن لها قوانينها الخاصة، ولطالما كانت هكذا».

أخذ نفساً عميقاً وأكمل: «لكن وصولها، ونتائجه، غيّر كل شيء طبعاً. وتحت هذه الظروف، أنا أحلّك من التزامك بصفقتنا، أنت حرّة لتغادري ساعة تشائين. وأقترح عليك أن يكون هذا عاجلاً، لا آجلاً».

ساد صمت مطبق.

فكرت لوسي بأن الأمر مضحك. وها هي تتعذب حول بقائها أو رحيلها، ممزقة بين اللاقرار وألم الحب. وها هو جوليو يعطيها أوامر الرحيل دون تفكير، لكنها لم تشعر برغبة في الضحك.

فقالت بهدوء: «وماذا سيحصل للولدين؟».

ـ لهما أم وجدة.

ـ لن يحدث الكثير، لقد اعترفت بهذا بنفسك، ولأكون صريحة، ما من واحدة منهما ترغب بإزعاج نفسها.

ثم رفعت ذقنها: «هل أنت مستعد لتولي العمل بنفسك؟».

بدا مجفلاً: «أنا؟».

هزت رأسها بحزم: «هذا ما ظننته، وفي هذه الحالة، سأبقى سنيور. لكن فقط لأجل الولدين، وإلى أن تجد مساعدة أخرى».

قال بهدوء: «هذا مستحيل».

واجهته تتحدى نظرته: «لماذا؟».

ـ لأن وجودك سيتسبب بالمصاعب، أنت لاتعرفين هوية الزائرين الجدد.

ـ أنت مخطىء سنيور، أعرف تماماً من تتوقعون.

وببرودة مصطنعة أضافت بصوت هادىء: «ولا داعي حقاً للقلق.. فلا أنوي أن أسبب إحراجاً لك».

نظر إليها، وقد أسر اهتمامه بحدة، وقال: «تعرفين؟ سمعت؟ لكن كيف؟».

كانت ترتجف في داخلها لكنها أبقت صوتها هادئاً: «وهل يهم؟ ليس لهذا أي فارق عندي، أؤكد لك».

ضاقت عيناه: «إذن يجب أن يكون لهذا فارق.. لوسيا لست مضطرة لتتظاهري بشيء، ليس معي».

وبهزة كتف غير مبالية أخذ منها كل قوة تملكها: «ليس هناك أي تظاهر، كان الأمر فقط، فترة فاصلة، وأعرف هذا. لا يجب أخذه بجد، ومن الأفضل نسيانه بكل تأكيد، وهذا ما أخطط لفعله، لذلك أرجوك، لا تقلق».

قال بهدوء: «بدا لي الأمر غير هذا، سامحيني، لكن كان لدي انطباع أن الأمر أكثر من مجرد فترة فاصلة».

عضت لوسي شفتها، وهي تشعر بالإذلال لكنها أبقت صوتها مستوياً: «إذن أنت مخطىء سنيور، لكن على الأقل أرجو أن توافق على أن الأمر انتهى، وأنه من الأفضل التصرف وكأن.. الأمر لم يحدث أبداً».

فقال وقد بدت عليه الدهشة من رباطة جأشها: «كلمات شجاعة، لكن ماذا ستشعرين حين تواجهين الواقع؟ لا أريد رؤيتك مجروحة، لوسيا».

هزت كتفيها: «أرجوك، لا تزعج نفسك أكثر من هذا، أنت حقاً تأخذ شيئاً تافهاً بجد كبير، وأنا آسفة لو كنتُ أعطيتك انطباعاً مخطئاً عن مشاعري، لم أكن أقصد، فعلاً».

حل صمت متشدد، ثم قال بلهجة صارمة مجردة: «هكذا إذن، الواضح أن رأيي الأساسي بك كان صائباً».

وتركها تستوعب ما قال، ثم أشار إلى حقيبتين خلفه: «لقد وجدت ملابس الولدين».

قالت: «غراتزيا».

رد دون اكتراث: «بريغو..».

وكانت ابتسامته مختصرة: «أرجو لكِ كل الحظ في دورك الجديد كارا، وأرجو أن لا تجديه متطلباً كثيراً».

قالت: «لا تقلق، سأتذكر مكاني جيداً».

كان يستدير ليخرج، لكنه استدار مجدداً ليواجهها قائلاً بصوت أجش غاضب: «مكانك؟ سأريك مكانك ميا كارا».

بدت لفظة التحبب كالإهانة، خطوتان أوصلتاه إليها، وأمسكت يداه خصرها تجذبانها إلى الأمام بحيث تسمرت ولم تستطع الحراك، ثم، وللحظة لا نهاية لها، عانقها مجدداً، وكأنه يفترسها.. كانت مصدومة وعاجزة تحت قوة عناقه.

لكن، وقبل أن تعترف باستسلامها، انتهى العناق.

تراجع جوليو إلى الوراء، وتركها فجأة، وباشمئزاز تقريباً. قائلاً: «والآن، أصبح لديك شيء آخر تتذكرينه، شيء تافه تزيدينه إلى مجموعتك».

وخرج من الكاسيتا، وصفق الباب خلفه.

خرجت أنفاس لوسي المحتجزة منها بتنهيدة مرتجفة. وببطء، أبعدت أصابعها عن خديها وحركتها بهدوء وحذر لتخفف الألم الذي انتابها، وأحست بالدموع تختلط بالغضب وخيبة الأمل.

حتى قبل معانقته لها، كان تصرفه كله يشبه الإهانة. لقد كان خائفاً من محاولة استغلالها لما جرى بينهما مع زوجة المستقبل.

هل يعتقد حقاً أنها صغيرة العقل وكريهة إلى هذا الحد؟ لكن، ماذا

تتوقع؟

الواقع أن سماع صوته كان يجعل نبضاتها تقوم بأشياء مجنونة، وأن عناقه، حتى في غضبه، كان يجعل بشرتها تتكمش رغبة، وكل هذا مشكلتها، ومشكلتها لوحدها.

ما عدا أنه، ولعارها، خمّن كل عذابها العاطفي الذي أرادت إخفاؤه. فكذلك رآها شفافة رغم ادعائها الزائف.

واستنتجت لوسي أن فالكون خائف من أن تفعل أنجيلا عروس المستقبل الشيء ذاته، ولهذا أراد إبعادها بتلك الطريقة المذلة.

لكنها لن تخمن شيئاً مني. من الآن وصاعداً، جوليو فالكون منطقة محرمة، ولسوف تتأكد من أن عالميهما المنفصلين لن يلتقيا أبداً.

كان الغداء بالنسبة للوسي مناسبة متوترة. كانت في مزاج معكر. وماركو الذي تركز عليه اهتمام جدته المحبة معظم الصباح، بدا منكباً على برهنة سوء تصرفه بمحض إرادته.

إنه طفل جميل، لكنه مدلّل. وحاولت لوسي جاهدة منعه من تحويل محتويات طبقه إلى الأرض في غرفة الطعام.

وأبقت الكونتيسا على سيل متدفق من الحديث بلغتها. أما فياميتا، فإحراجها كان واضحاً وقد قامت ببضع محاولات فاشلة، لتحوّل الحديث إلى الإنكليزية.

ولم يقل جوليو شيئاً، كان يجلس في مقعده على رأس المائدة شارداً ومشغول الفكر.

وخاطرت لوسي بنظرة نحوه من تحت رموشها. وافترضت أنه يفكر بأنجيلا، بعد الدقائق لوصولها دون ريب.

حين انتهت الوجبة، قالت فياميتا إن على الولدين أن يرتاحا، مما تسبب ببكاء فوري من إيميليا. وقالت باحتجاج: «لقد استخدمت كل وقت نومي، بإمكان ماركو أن يرتاح، سأسبح في بركة السباحة».

اعترضت لوسي: «ليس بعد الطعام مباشرة».

وتلقت في المقابل نظرة شرسة ورفسة حادة على ساقها من تحت الطاولة، لكن صيحة الألم غطاها إنكار ماركو الصاخب لتعبه.

وضعت فياميتا يدها على رأسها: «ماركو، كارا.. يا لهذا الصوت!».

واستدارت إلى لوسي: «لوسيا، هل تستطيعين فعل شيء؟».

قاطعتها الكونتيسة بنفاد صبر: «بالطبع تستطيع، هذا ما هي موظفة لتفعله.. خذي الولدين بعيداً سنيوريتا، وسليهما».

دفع جوليو كرسيه إلى الوراء ووقف: «لا داعي لهذا، أنا ذاهب إلى المعصرة للتحدث إلى فرانكو.. يمكن أن يأتيا معي».

وقفز عليه الولدان بصياح الفرح.

قالت الكونتيسة بصوت فيه عدم رضا: «أنت خارج؟ لكن أنجيلا ستصل في أية دقيقة».

رد ببرود: «إذن، أستطيع الاعتماد عليك لترحيبي بها وبرفيقها فهما على أية حال ضيفاك، عزيزتي كلوديا».

وغادر الغرفة، وفي كل يد يتعلق طفل، تاركاً وراءه ما افترضت لوسي أنه صمت ثقيل كسره صوت الكونتيسة في نوبة كلام غاضب، قاطعته فياميتا بضحك متواصل: «ماما، ألم تتعلمي بعد أن جوليو رجل حرّ بنفسه، وأنك لن تستطيعي إجباره على شيء.. سوف يتزوج أنجيلا حين يكون مستعداً. وفي هذه الأثناء.. سيسلي كل منهما نفسه كما يشاء».

وأحست لوسي كأنها ابتلعت حجراً.

بقعتان ملتهبتان من اللون الأحمر صبغتا وجه الكونتيسا: «كان يجب ترك أمر تربيتها لي، لكانت المسألة سويت منذ أمد بعيد».

هزت فياميتا كتفيها دونما اكتراث: «ربما».

ثم استدارت إلى لوسي: «لوسيا، لقد وجدت بعض الكتب والألعاب التي وضعتها اليسون للأولاد بين الأمتعة، فإذا جئت إلى غرفتي،

فسأعطيك إياها».

لم يكن أمام لوسي خيار سوى الموافقة، وهما تصعدان السلم، دست فياميتا ذراعها بذراع لوسي: «لوسيا، أريدك أن تعرفي أنني ممتنة جداً من وجودك هنا. لكن، لا تهتمي كثيراً لكون ماما غير متجاوبة، الحقيقة أنها لا تحب الإنكليزية كثيراً، أختها الأصغر سناً بيانكا، تحب اللغة الإنكليزية لأنها تزوجت رجلاً إنكليزياً، وماتت في بلادكم بعد ولادة أنجيلا، وماما تلوم زوج بيانكا والمستشفى، والجميع.

قالت لوسي بارتباك: «كم هذا فظيع، وأنا آسفة».

ـ وما زاد الامر سوءاً أنها اتصلت بعمي، زوج خالتي، تعرض عليه أخذ البامبينو (أي أنجيلا) تربيها بنفسها، هنا في إيطاليا، لكنه رفض، ولم تسامحه ماما أبداً، صدقيني.

نظرت لوسي إليها بذهول: «تعنين، مع خسارته لزوجته، كانت تتوقع منه التخلي عن طفلته؟».

ـ لماما دماغ يسير في اتجاه واحد، حين تزوجت الكونت فالكون، كنا أنا وجوليو الولدين الوحيدين لهما، وكم تمنت الحمل بطفل جديد منه، صبي آخر، ولكن حين لم يحدث هذا، قررت أن نتزوج، أنا وجوليو.

ثم هزت رأسها: «يا لها من فكرة، لم يكن أي منا يحب الآخر أبداً، ولو أن جوليو جذاب جداً».

وقادت فياميتا لوسي إلى غرفة نومها وأغلقت الباب: «هناك شيء يجب عليك معرفته، إذا كنت ستعتنين بولديّ، هناك مشكلة كبيرة مع إيميليا».

التقطت فياميتا كتاب صور، وأخذت تقلبه بتوتر ثم وضعته من يدها.

ـ حين ولدت إيميليا ابتهجت أمي طبعاً، كانت أول حفيدة لها. لكن، حين جاء ماركو، الصبي المنتظر، اختلف الأمر كثيراً، جُنت فرحاً، وكأنه ابنها هي، واعتقدنا، سيرجيو وأنا، أن هذا سيمر، لكنه استمر بوضوح

بالغ، وإيميليا ترى هذا، وتغار.

أخذت نفساً عميقاً: «في يوم ما، دخلت ماما غرفة ماركو لتجد إيميليا تقف إلى جانب مهده وكأس زجاج في يدها، كانت المياه في كل مكان، على البطانية وعلى وجهه، قالت إنها كانت تحاول إعطاءه جرعة ماء..».

وتلاشى صوتها.

ـ ربما كان هذا صحيحاً.

ـ لكن ماما لم تعتقد هذا، أصبحت امرأة مجنونة.

رفعت فياميتا عينيها إلى السماء: «اعتبرت ماما أن الكأس كان يمكن أن ينكسر واتهمت إيميليا بمحاولة أذية ماركو».

ـ ثم كان هناك أشياء أخرى، حين بدأ ماركو بالمشي، رأينا إيميليا تأخذه إلى بركة السباحة، لتعلمه السباحة، كما قالت. وهي لا تعرف السباحة، ولو انزلق..

وارتجفت، ترفع يدها إلى فمها.

وضعت لوسي يدها على ذراعها تهدىء من روعها: «لكنه لم ينزلق، ولا بد أن هذا كان منذ زمن بعيد».

ـ هذا ما يقوله سيرجيو، لكنني لا أستطيع نسيانه، ولا تسمح ماما بذلك.

فتحت يديها: «تعتقد ماما أن علينا إبعادها، إلى مدرسة تتعامل مع الأولاد المضطربين، بدلاً من هذا، توصّلنا إلى حل وسط، استخدمنا أليسون على أساس مراقبة إيميليا بشكل خاص، وإذا حصلت أية أحداث أخرى سنفكر بالمعالجة التي يمكن لتلك المدرسة تقديمها».

ابتلعت لوسي ريقها: «هل ذكرت هذا لجوليو، أعني الكونت فالكون؟».

هزت فياميتا رأسها: «لا. لقد كان جوليو صبياً صغيراً، في الرابعة عشرة من عمره، حين تزوجت ماما من أبيه. كان يحب أمه كثيراً، ووجد من الصعب تقبل حلول أية امرأة في مكانها. وماما ارتكبت أخطاء كذلك،

وسيكون من الصعب عليها الآن مشاركته مثل هذه المتاعب، أو الاعتراف أن حفيدتها، قد تكون مريضة، بطريقة ما. لو كان متزوجاً، وله أولاد، فقد تكون العلاقات العائلية أكثر تقارباً، ولربما تفهم أكثر هكذا أمور».

ـ حسن جداً، ربما ستكون الأمور مختلفة، حين يتزوج أنجيلا.

وبدا صوتها دون رنين خاص.

ابتسامة فياميتا المفاجئة كانت كالشمس التي تخترق السحاب.

ـ مسكينة ماما، لم تنجح في تزويج جوليو من ابنتها، لذا تحاول تزويجه من ابنة أختها، بطريقة ما، يجب أن لا ينجو.

وضحكت: «لقد أصبح هذا وسواساً عندها».

فقالت لوسيا: «أوليس للاثنين السعيدين رأي في المسألة؟».

هزت فياميتا كتفيها: «لن يكون هذا صعباً، أنجيلا جميلة جداً، وجوليو، وسيم جداً، لا بد أنك رأيت بنفسك. إنه رجل تتمناه أية امرأة، حتى دون ماله وسلطته».

أخفضت فياميتا صوتها متآمرة: «ظننت أن هذا سيحدث منذ ثلاثة سنوات، حين كان في لندن، ويتقابل وأنجيلا باستمرار، لكنه لم يلزم نفسه بأي وعد، عدا عن قوله إنها صغيرة جداً، ومنذ ذلك الوقت، قابل كلاهما أشخاصاً آخرين، لكن في النهاية سيكونان لبعضهما».

تابعت فياميتا: «لكن، هذه المرة، ماما غاضبة من أنجيلا لأنها ستحضر معها صديقاً لها إلى هنا، وهي لم ترمي من قبل بإحدى علاقاتها في وجه جوليو هكذا».

اقترحت لوسي بجفاء: «ربما تحاول فرض الأمور، بجعل الكونت فالكون يغار».

صفقت فياميتا يديها: «ربما أنت على حق، برافو لوسيا، كم أنتِ ذكية».

وضحكت بمرح: «وكيف ستكون ردة فعله، أتساءل؟ أعتقد أن الأيام القليلة القادمة ستكون مثيرة جداً للاهتمام، أليس كذلك؟».

وهي تعود إلى الكاسيتا محملة بالكتب والألعاب، عرفت لوسيا أن ما سيحدث سيكون أكثر مما يمكن لها تحمله.

بعد ساعة ارتدت بيكيني أسود اللون، غطته بقميص حريري واسع، ووضعت نظارة شمس، وسائلاً مضاداً للشمس في حقيبتها.

بدا لها أن الڤيلا كلها نائمة تحت الشمس، وهي تشق طريقها عبر الحدائق، لم يكن هناك نحل بزّ في مساكب اللافاندر التي تحيط بالبركة، حتى زيزان الحصاد كانت صامتة، وما من ورقة شجر كانت تتحرك وهي تمر بها بهدوء، صوت تنفسها وحده كان يزعج هذا السكون الحارق.

للحظات، وقفت عند أعلى السلم، تنظر إلى الحياة التركوازية الساكنة، تتذكر أحداث الليلة السابقة: الموسيقى، الضحك الماجن، رعبها هي.. وارتجفت قرفاً لكنها سمحت لهذا الهدوء غير العادي أن يغلفها وكأنه الحرير المتموج للرداء الذي تلبسه.

سبحت طولاً ببطء وسهولة، ثم رفعت نفسها إلى الأرض المبلطة وجلست تنفض الماء عن شعرها.

التقطت منشفتها وبدأت تلتقط الرطوبة عن جسمها، ثم توقفت، فلاقطات الإرسال الفكرية لديها أصبحت حذرة فجأة. حيث سمعت صوت خشخشة خفيف كنسمة هواء عابرة. من مكان ما فوقها، وخلف الجدار اللافندري الأزرق، والورود الكثيفة. وهي تصغي، سمعت صوت حصاة تتحرك، وكأنها تتدحرج تحت قدم غير مبالية.

أجفلت، ومررت نظرها على حاجز الزهور لإيجاد إشارة ما تفصح عن وجود حركة، ونادت: «هل يوجد أحد هناك؟».

لكن، دون جواب، سكون تام هبط مرة أخرى.

لا بد أنني كنت أتخيل الأشياء، ومدت المنشفة على الفراش، وتمددت عليها، ووجهها إلى الأسفل. وضعت رأسها على ذراعيها المطويتين وأغمضت عينيها، تاركة الصمت يغلفها مجدداً.

وجدت سلسلة من الصور تدور في رأسها، وجه إيميليا الذابل، عيني

فياميتا القلقتين، تعبير الكونتيسا المتكبر بازدراء، وفوق كل هذا جوليو فالكون وعينيه الكهرمانيتين اللتين ترسلان شرر نار، وفمه المتصلب غضباً، المنحني بابتسامة، ورشاقة جسمه الموروثة، والقوة الخفية ليديه العمليتين الخادعتين.

أغمضت لوسي عينيها بشدة أكبر، حتى رأت أضواء ملونة صغيرة تتراقص خلف جفنيها، لكنها لم تستطع صرف صورته.

وفكرت ناعسة: ظله دائماً موجود، على طرف كل فكرة، كل حلم..

وعرفت أنها ضاعت دونما رجعة.

***

٥ ـ آخر لعبة

بدا للوسي أنها تطوف سائحة فوق تيار هوائي دافىء، وجسمها كله في استرخاء تام، وهي تنظر إلى الأراضي الذهبية المنبسطة تحتها. كانت ذراعاها كجناحان لها، وهي كحمامة تطير ثم تنقض على الأرض ثم ترتفع بحّرية.

لكنها كانت تعرف أن حريتها مجرد وهم، فمن الأعلى يطل عليها ظل الصقر المفترس الذي لا يمكن لها الهروب منه، مهما ناورت وحاولت.

ثم سمعت اسمها بنعومة عبر الهواء المشمس، وأحست بيدين تتحسسان قسماتها وتدعوانها إلى الخضوع، وتلامسانها بسيادة مطلقة.

فجأة، لم يعد هذا حلماً، بل بات واقعاً مطلقاً، يدفعها مصدومة نحو جوليو، الذي كان يركع إلى جانبها، يدهن السائل الواقي من الشمس على كتفيها وظهرها، بأصابع خبيرة وحازمة.

جلست لوسي: «ماذا تظن نفسك تفعل؟».

قال بلهجة ساخرة: «أمنعك من شوي نفسك وأنت حية، لقد تحركت الشمس وأنت نائمة، أيتها الحمقاء الصغيرة!».

سألت بغضب: «ألم يكن إيقاظي وتنبيهي هو السبيل الأصوب؟».

قال موافقاً، وعيناه الكهرمانيتان متسليتان: «ربما، لكنه ليس ممتعاً كثيراً، صدقيني».

عضت شفتها غيظاً: «وأعتقد أنك كنت أنت المتلصص منذ قليل؟ أوليس هذا دوراً ملائماً لسيد المنزل؟».

قطب حاجبيه: «ماذا تقولين؟».

قالت ساخرة: «أوه، لا تدّعي، منذ متى وأنتَ مختبىء وراء الشجيرات، تتجسس علي؟».

تحوّل صوته إلى حرير على فولاذ: «احذري لوسيا، هناك حدود، حتى لكِ. لقد وصلتُ منذ دقائق، أنوي السباحة، ولو لم تكوني مستلقية تحت أشعة الشمس الحارقة، لكنتُ احترمت خلوتك، وابتعدت».

نظرت إليه وهي تضع المنديل على ثوب السباحة، فهو لا يزال يرتدي الثياب ذاتها التي كان يرتديها في الصباح.

ـ للسباحة سنيور؟ لا يبدو أنك ترتدي ثوب سباحة، ولا تحمل منشفة.

قال بنعومة: «في مثل هذا الوقت من اليوم لوسيا، تكون البركة لي وحدي، لذا يمكنني نسيان أشياء كهذه».

وهو يراقبها التوى فمه قليلاً، وبدأ يفك أزرار قميصه.

ـ أترغبين مني أن أريك كيف؟

فقالت بشراسة وهي تنتزع قميصها وتقف: «لا، بالتأكيد لا، أنا.. سوف أتركك تفعل ما تشاء».

وقف بدوره يضحك ورفع يديه باستسلام ساخر: «لا تهربي كولومبينا، تمتعي بالشمس، لقد أصبحت الآن محمية ضدها، وتمتعي بحريتك».

وقفت لوسي مترددة، فيما راحت يداه تضعان السائل المقاوم للشمس.

انتظر جوليو لحظة، ثم تنهد: «لوسيا ميا، أرجوك توقفي عن التمسك بهذا القميص وكأنه الدرع، هذا غير ضروري».

رفعت ذقنها: «لا؟ لديك ذاكرة قصيرة سنيور».

ـ بالعكس..

وصمت ثانية، ثم قال: «إذا أردتِ الاعتذار لما فعلته هذا الصباح في

الكاسينا، فسأعتذر، فنظراً للظروف، ليس من حقي لمسك أو معانقتك، أعترف بهذا. لكنني أرفض أن أعتذر عن وضع السائل المقاوم للشمس.. لقد كان ضرورياً».

قالت متصلبة: «لم يكن لك أي حق، مهما كانت الظروف».

هز كتفيه: «إذن ربما كنت أستغل جيداً الوقت الثمين القليل الذي بقي لي، ولا يمكن أن ألام على هذا».

ـ ما عدا أنني لست هنا ليستغلني أحد، فأنا أكمل واجباتي من الصفقة، ولا شيء غيرها.

قال جوليو متشدقاً: «الآن ذاكرتك هي المخطئة، ميا كارا، الصفقة بيننا ملغية، كما أوضحت لك، ومن الآن وصاعداً أنت تبقين بمخاطرة خاصة منك».

قالت بهدوء: «فليكن هذا، لكنك ستفهم إذا لم أرغب في المخاطرة في البقاء وحدي معك».

اشتدت قساوة وجهه: «بداية تتهمينني بالتلصص عليك من وراء الشجيرات وكأنني مراهق أرعن، والآن أنا مغتصب معتدٍ، على ما يبدو».

ـ لم أقل هذا.

ـ لكن التلميح واضح، لقد لمحت أنك لا تستطيعين الثقة بي، ولا يمكن أن أكون وحدي معك دون أن آخذ شيئاً لا تريدين إعطائي إياه.

ثم هز رأسه: «أنت مخطئة، أنا لم آخذ يوماً أي شيء من أية امرأة لم تعرضه عليّ بكل حريتها، وأنتِ لوسيا، لن تكوني الاستثناء في هذا القانون».

قالت بصوت أجش: «إذن، لماذا لا أشعر بالأمان؟».

ـ ربما لأنك لا تثقين بنفسك.

شهقت وطغى اللون الأحمر على وجهها: «كيف تجرؤ؟».

ـ أجرؤ لأنني على عكسك، لا أخاف المخاطرة.

وهز كتفيه بإهمال: «والآن، تابعي حمام الشمس، بينما أسبح.

فطول البركة مسافة كافية بيني وبينك، إلا إذا، بالطبع، رغبت الانضمام إليّ في الماء؟».

ـ شكراً لك، لكنني اعتقدت أنك أدركت البارحة أنني لست مهتمة بمثل هذا النوع من.. المغامرات.

ـ وأنا اعتقدت أنك أدركت منذ البداية أنني أحاول ممازحتك.

وجذب قميصه من فوق رأسه، وفك بنطلونه الرمادي ليكشف عن شورت سباحة أسود.

ـ هل يرضي هذا إحساسك بالحشمة كولومبينا؟

أجبرت نفسها على القول بهدوء: «لا يغريني هذا بالبقاء».

حتى وهي تتكلم بطريقة لا مبالية، كان قلبها يخفق بشدة، وارتدت قميصها وبدأت تزرره بأصابع متوترة.

سأل بسخرية: «وماذا يفترض بهذا أن يحقق؟ أتظنيني لا أملك ذاكرة، ولا مخيلة؟».

اشتعلت عينا لوسي بنار مفاجئة: «أعرف أن لا ضمير لك سنيور، وإلا لما تصرفت هكذا، لا يمكن».

والتقطت حقيبتها: «وهذا سبب آخر لعدم اختياري البقاء هنا».

ـ وليس لي خيار في هذا؟

نظرت إلى عينيه مباشرة: «خيارك مأخوذ سلفاً، أنا هنا لأعمل سنيور، وليس لأوفر لك تسلية عابرة».

قال بخشونة: «لم يكن هذا في نيتي».

ـ أنا لست مهتمة بنواياك، ولنتكلم عن المسؤوليات التي يبدو أنك نسيتها.

ضاقت العينان الكهرمانيتان عليها ببطء.

ـ أنت مخطئة لوسيا، أنا لا أنسى شيئاً، وكيف أنسى؟

رمت الحقيبة فوق كتفها، وبدا صوتها خشناً: «أنت غير عادل سنيور».

وهي تمر أمامه مد يده إليها، وأطبقت أصابعه حول معصمها، قال بصوت منخفض ناعم: «وما يمكن أن يكون عدلاً في هذا الموقف؟ لوسيا، انظري إلي يا صغيرتي الحلوة البلهاء».

بدا الجو المحيط بهما فجأة متوتراً وملتهباً بحرارة لا علاقة لها بتوهج الشمس. الدم في شرايينها، كان بطيئاً وثقيلاً. ضربات قلبها تؤلم صدرها، وما كان عليها سوى أن تستدير مذهولة نحوه.

سمعت، وكأنما من لا مكان، ضحكة فتاة، ضحكة عميقة من الحلق، تتموج، تقطع التوتر بينهما، وتبدد الحلم.

ـ تلعب ألعابك المعتادة جوليو حبيبي؟

كانت تقف على السلم الصغير، تنظر إليهما. كانت سوداء الشعر وجميلة جداً، جسمها المثير معروض في فستان بلون زهري لاسع، بياقة منخفضة فوق صدر ممتلىء، وينتهي قبل الركبة.

ـ ومن هو آخر لعبة لك؟

تراجع رأس لوسي إلى الوراء، وتلاشت أنفاسها في شهقة صامتة، وكأنما تلقت ضربة مؤلمة.

لا داعي للتخمين من تكون هذه القادمة الجديدة! أنجيلا، زوجة المستقبل.

لكنها لم تكن غريبة، لقد رأتها لوسي من قبل.. وتذكرت، فقد رأتها وهي خارجة من مطعم في شارع نايتسبرج مع فيليب.

وفيليب هنا الآن، يقف على السلم خلف أنجيلا، وجهه جامد وهو غير مصدق ويشعر بالذعر ينتابه. فكرت لوسي: وأنا أعرف كيف يشعر.

خلّصت يدها برزانة، وقالت: «أنا مساعدة مأجورة سنيوريتا، كان بيننا خلاف بسيط حول شروط التوظيف، وهذا كل شيء».

ورمت بابتسامة براقة لا معنى لها: «والآن، لو عذرتموني جميعاً..».

ومرت من أمامهم تصعد السلم، درجتين في كل خطوة، دون أن تنظر

إلى الخلف.

وهمست لوسي لنفسها وهي تذرع غرفة الجلوس في الكاسيتا: أوه، يا إلهي، لا يمكن لهذا أن يمكن أن يكون حقيقياً.

رؤية فيليب هكذا دون توقع صدمتها وكادت تطرحها أرضاً، لطالما افترضت أنهما حين سيلتقيان مرة أخرى ستشعر بالدمار، لكن هذا لم يكن ردة فعلها، كان الرعب والحرج هما الإحساس المسيطر والظاهر.

كل ما ستركز عليه الآن هو التخفيف من الضرر، الواضح أن أنجيلا لا فكرة لديها أنها وفيليب كانا معاً، وحتى هذه النقطة، كل شيء جيد.

ولا سبب يدعو لأن يربط جوليو حبها الضائع بعشيق أنجيلا الإنكليزي، وبالتأكيد هي لم تعط أي إشارة عن ذلك في ما قالته ليلة أمس عن حبيبها الذي تركها.

وبدا أن هناك فرصة كبيرة لبقاء جوليو وانجيلا في جهل سعيد، وكلما كان ما يقال أقل، كلما كان أفضل وبالإمكان إصلاحه بسرعة، وهذا ما قررت قوله لفيليب في أقرب فرصة ممكنة.

أحست بمرارة في حلقها، وألم في قلبها، وهي تفكر بأنجيلا. جميلة جداً، واثقة من نفسها جداً، تشع إثارة، وكانت تبتسم بخبث وهي تراقب المنظر الصغير أمامها.

وكما يبدو فإن ما قالته فيامیتا صحيح. فانجيلا وجوليو، يتقبلان لهو بعضهما بسهولة تامة.

لكن، أين يترك هذا فيليب؟ وتساءلت عن هذا بعدم ارتياح، هل هو مجرد تسلية عابرة كذلك، أم أن علاقته بأنجيلا هي من النوع الحقيقي، على الأقل بالنسبة له؟ تكهنت لوسي أنها تستخدمه ببساطة لتدفع جوليو للزواج بها بسرعة.

تنهدت، الطريقة التي تسير فيها الأمور، يمكن أن تنتهي إلى خسارة في اتجاهين.

ما عدا، بالطبع، أن جوليو لم يكن يوماً لها لتخسره، وهذا ما يجب

أن تتذكره بأي ثمن، هذا إذا أرادت الاحتفاظ بتعقلها.

أحست بارتياح حين وصلت تيريسا، مليئة بالابتسامات، مع الولدين، وقد قامت بترتيبهما وجعلهما مقبولين للعشاء، مما شغلها عن التأمل بما لا أمل فيه، ثم الخروج دون ضرر أبداً، إلاّ أنها قررت الخروج من هذه اللعبة بأقل ضرر يمكن تحمله.

وما كادت لوسي تنتهي من أخذ حمام حتى سمعت صوت تحطم وصيحة حادة من الأسفل، فلفت المنشفة حولها وسارعت إلى الأسفل، لترى إحدى النباتات التي أدخلتها إلى المنزل ملقاة على الأرض، ووعاءها الفخاري محطم، والتراب والزهور مكسورة ومنتشرة في كل مكان.

سألت: «من فعل هذا؟».

- إنها إيميليا، رمتني بها.

احمر وجه إيميليا غضباً: «لم أفعل هذا، كان يلعب بها، وقلت له أن يتوقف، فرماها».

صاح ماركو: «كاذبة».

سأل صوت بارد من على الباب: «ما هذه النعوت؟».

ودخل جوليو.

قالت لوسي ساخطة وهي ما زالت تلف جسدها بالمنشفة: «أحدهما كسر هذه النبتة، وكل منهما يلوم الآخر».

وهذه ليست بداية جيدة للنظام الجديد.

وأخذت تنقل نظرها من وجه ساخط إلى آخر.

وقال ماركو لخاله: «قالت لوسيا إننا لو كنا لطيفين مع بعضنا ليوم كامل، فسوف تعطينا مكافأة».

التوى فم جوليو: «هذه رشوة كولومبينا؟».

محمرة الوجه شدت على المنشفة: «يجب البدء من مكان ما».

نظر جوليو إلى الولدين مباشرة: «حسن جداً أيها الوغدين الصغيرين، إذا تمكنتما من القيام بهذا العمل العظيم، فسأكافئكما بنفسي».

وتظاهر بأنه يفكر: «ما رأيكما برحلة نزهة؟».

صاحا معاً، يقفزان حوله مثل جروان، وقد نسيا كل حردهما: «سي، سي!».

وابتسم ببرود للوسي: «لكن الأمر عائد للوسيا لتقرر ما إذا كنتما تستحقان هذا. موافقان؟».

وأضاف: «تقول فياميتا أن بإمكان الولدين أن يأتيا للكلام معها وهي ترتدي ملابسها، ولقد جئت لآخذهما، وفي الوقت المناسب كما أرى».

ـ أجل.

كانت المنشفة ملفوفة بشكل ملائم تماماً، لكن لوسي أحست بارتباك مثير تحت نظرته المطولة: «شكراً لك».

ـ بريغو.

ومع اندفاع الولدين إلى الأمام تحت شمس بعد الظهر استدار جوليو فجأة عن الباب، والابتسامة التي لوت شفتيه، أصبحت حميمة ساخرة، وقال بنعومة: «وإذا كنت طيباً ليوم كامل، فهل تكافئينني ميا كارا؟».

علا الاحمرار وجهها، وقالت بهدوء: «أعتقد أنني سأكون بأمان سنيور، فأربع وعشرون ساعة مدة طويلة».

وبقدر ما استطاعت أن تجمع من وقار داخل منشفة حمام، استدارت لتصعد السلم، وهي تدرك أنه يراقب كل خطوة تخطوها.

راقبته من النافذة يقطع الفناء، وقبضتها مضغوطة على فمها بقوة بحيث أحست بألم في شفتيها.

أربع وعشرون ساعة، وقت طويل بما يكفي لتقع في الحب، طويل بما يكفي لتكتشف ذلك النوع من الألم القادر على تمزيقها إرباً، وتركها تعاني إلى الأبد، طويل بما يكفي ليدرك المرء أنه يفضل الموت.

توقعت لوسي أن تجد العائلة مجتمعة في السالاتو حين دخلت أخيراً على مضض، لكن ولدهشتها كان فيليب الشخص الوحيد هناك.

كان يقف يحدق متجهماً إلى خارج النافذة لكنه استدار وهي تدخل

لينظر إليها بحدة: «ما هذه اللعبة لوس؟ ماذا تفعلين هنا؟».

ـ لدي عمل مؤقت كمربية لولدي السنيورا رينالدي.

ـ هراء! أظنك أتيت إلى هنا متعمدة، لإحراجي.

ثم هز رأسه بحزن، لا بغضب: «لقد خاب أملي فيك لوس، ظننتُ أن لديك احترام نفس أكثر من هذا، وكرامة أكثر».

نصحته لوسي بحزم: «لا تغتر بنفسك كثيراً، لم يكن لدي أدنى فكرة أن لعشيقتك أية صلة بهذا المنزل. في الواقع، العائلة كلها كانت غريبة عني حتى الأمس».

ـ وهل تتوقعين مني تصديق هذا؟ أنك قبلت بعمل خلال العطلة كخادمة لجماعة لا تعرفينهم؟

وضحك ضحكة فظة: «أعطني رواية غيرها».

ـ أنا حقاً لا أهتم بما تصدق.

وكم من الغريب أن يكون هذا صحيحاً.

ـ لكن، هذا ما حدث. لقد سُلب مالي، وكانوا هم بحاجة كمربية، لكن فيما يخصني فيليب، أنا وأنت غريبان أيضاً. ولقاؤنا هكذا صدفة مريعة، لكن ليس من داعي لأن يكون كارثة.

قال بغضب: «أعتقد هذا، ولو أن كل هذا يتساوى مع بقية هذه الرحلة».

جلس متثاقلاً على إحدى الأرائك: «كان القصد منها رحلة رومانسية لاثنين، ثم ما أن وصلنا فلورنسا، حتى انقلبت أنجيلا فجأة إلى نسر باحث عن الحضارات، وشعرت بكابوس، لقد اضطررنا في الواقع إلى الوقوف في الصف لنصل إلى «يوفينزي». أما بالنسبة لتمثال ذلك الرجل «دايفد» فكان هناك دزينات منه».

أرادت لوسي أن تضحك، وقالت بلطف: «أعتقد أن معظمها نسخ والأصلي في الأكاديميا».

ـ أوه، أنت تعرفين، بالطبع.

ونظر إليها نظرة ناقدة:

ـ لأكون صادقاً لوس، لم أكن أتوقع الإقامة مع أقارب أنجيلا، لم تقل يوماً كلمة عنهم ونحن في لندن.

وابتهج قليلاً: «لكن، أعتقد أن لهذا دلالة جيدة، فهي راغبة بلقائي مع العائلة».

وأخفض صوته: «لكن الخالة، الكونتيسة، إنها آفة».

قالت لوسي كاذبة: «أجدها فاتنة».

نظر إليها نظرة طويلة أخرى: «لا مقاييس للأذواق، يجب أن أعطيك هذا الحق لوس، تبدين رائعة».

ردت بجفاء: «شكراً لك».

ضاقت عيناه: «أعني ما أقول، أنت مغوية كما كنتِ يوم التقيتُ بك».

قالت بهدوء: «أو إلى أن بدأت أنجيلا تستهويك».

أعطاها البسمة الضبابية التي كانت يوماً تطير بها نحو الأعالي.

ـ أوه، هيا الآن لوس، لقد كان لنا أوقات رائعة معاً، يجب أن تعترفي.

ـ حقاً؟

ونظرت إلى ساعتها: «أين هم الجميع؟».

وضع شرابه من يده، ووقف: «تعرفين هذا».

راقبت لوسي حركاته بكراهية. وقالت: «مهما كان الذي تخطط له فيليب، انسى الأمر، وتوقف عن مناداتي لوس، لطالما كرهتُ هذا الاسم».

وقف أمامها ينظر إليها وكأنه لم يرها من قبل، وربما لم يرها أبداً في يوم ما. وقال بصوت كريه: «حسن جداً، ألم نصبح فجأة متكبرين مترفعين؟ لم أكن أعمى على ما كان يحدث قرب البركة، حين وصلنا. وحسب قول أنجيلا، إنه شهير بمثل هذه المغامرات العابرة، لكن مستواه عادة، مرتفع أكثر».

الابتسامة التي اصطنعتها كلفتها الكثير: «شكراً، سأعتبر أنني تلقيت تحذيراً».

سمعت صوتاً من خلفها، فاستدارت، كان جوليو يقف بالباب يراقبهما دون أي تعبير على وجهه.

ـ مساء الخير، المضيف الضعيف وحده من يترك ضيفاً ينتظر.

عاد فيليب نحو الصوفا يبعد نفسه عن لوسي: «أوه، لا بأس في هذا، طلبت أنجيلا أن أصب لنفسي شراباً بينما تجهز نفسها».

ـ طبعاً. في العادة يجب أن يكون هناكَ من يخدمك، لكننا نعاني مشكلة خدم.

ابتلع فيليب شرابه: «سأذهب لأرى ماذا يؤخر أنجيلا».

فقال جوليو.

ـ ما يؤخرها هو المشكلة الأبدية عند النساء، ماذا سترتدي، دون شك.

وصب لنفسه بعض العصير بينما كان فيليب يتجه إلى الباب.

وترك فيليب خلفه صمتاً يمكن قطعه بسكين.

حين تكلم أخيراً، كان صوت جوليو لطيفاً ومحذّراً: «ابتعدي عنه لوسيا، إنه ليس لكِ».

أتظن أنني لا أعرف هذا؟ أرادت الصراخ به: كيف يمكن أن تكون أعمى إلى هذا الحد؟ ألا تعرف أنني أفضل الموت قبل أن أدعه يلمسني.

بدلاً من هذا قالت تسأله بلهجة خفيفة: «وهل هذا إنذار؟».

هز رأسه: «لا، بل هو أمر، أمر ستطيعينه».

تحدته: «لأنه ملك لابنة خالتك أنجيلا؟».

أصبحت ابتسامته خشنة فجأة: «ربما، إلى أن تسأم منه، إنها تعاني لعنة السأم السريع».

شربت بعضاً من العصير: «أتصور أن هذا من خصائص العائلة، وإذا قررتُ تجاهل تحذيرك؟».

التقت العينان الكهرمانيتان بعينيها بتصلب واكتئاب، وقال: «إذن، سأجعلك تندمين، تندمين على أنك أتيت إلى هنا أصلاً».

رفعت لوسي ذقنها: «أنت متأخر جداً سنيور، فأنا نادمة على هذا أكثر من أي شيء في حياتي، لذا، ماذا هناك لأخسره؟».

بدا أن الصمت يمتد بينهما حتى الأبدية، ورأت وجهه يتحول إلى قناع برونزي قاسي، وراقبته يتقدم بخطوة واسعة نحوها، ثم يتوقف.

قال بلهجة متمدنة وجادة: «في هذه الحالة سنيوريتا، ليس هناك المزيد ليقال».

ثم انفتح باب السالاتو، ودخلت فياميتا في موجة اعتذارات ضاحكة، والولدان يلحقان بها.

تقدمت لوسي إلى النافذة، تنظر، إلى الظلال المحيطة بالحديقة ولكنها لم تكن ترى شيئاً.

وفكرت: هكذا إذن! وتمنت من كل قلبها أن تستطيع الإحساس بالراحة بدلاً من هذه الوحشة المؤلمة.

***

٦ ـ أريد حريتي!

لو لم تكن لوسي تشعر بالجرح، لكان العشاء في ڤيلا دانتي ذلك المساء مرحاً وممتعاً.

فيليب الجالس قرب الكونتيسة، وجد كل محاولاته للحديث مصدودة بشكل منحجر، وفشل في عرض سحره.

كانت أنجيلا ترتدي فستاناً من «الشيث» الحريري العاجي اللون، كان يمكن أن يكلف لوسي راتب ثلاثة أشهر، ورأت الإثارة في ثنايا انجيلا المغرية وهي تركز اهتمامها على جوليو، بصوتها المنخفض، ولغة جسدها كل ذلك يوضح بأن العلاقة بينهما حميمة وطويلة الأمد.

تصرفات جوليو لم تفعل شيئاً لمعارضتها، واعترفت لوسي بهذا بكل إنصاف وألم. كان مسترخياً، ووجهه الأسمر يوحي بالتسلية.

وبدا أن هواجس لوسي لها ما يبررها.

وركزت جهدها على إقناع الولدين بالجلوس بهدوء ليأكلا، بينما تستمع إلى وصف فياميتا المرح للشقة التي سينتقلون إليها في نيويورك الخريف القادم.

وقررت لوسي، أنها ستنتقل إلى شقة جديدة. وقد تغير عملها حين تعود إلى لندن، فالقيام ببداية جديدة كاملة، تساعد على النسيان والشفاء.

لكزها ماركو وهمس متآمراً: «متى يبدأ اليوم؟ حين يجب أن نكون طيبين؟».

همست لوسي: «منذ هذه اللحظة، ولأربع وعشرين ساعة كاملة، لذا

WWW.LIBROMANCIA.COM

لا يجب أن نكون مزعجين حتى ليلاً».

بعد تقديم القهوة، تغير كل شيء.

كانت الكونتيسة، متجاهلة فيليب، تتحدث إلى فياميتا ملوِّحة بيدها وهي تشرح وجهة نظرها، حين مال جوليو نحوها إلى الأمام قائلاً بصوت ناعم كالحرير: «عزيزتي كلوديا، أرى أنك ترتدين خاتم فالكون الليلة، هل يعني هذا أنك ستعيدينه أخيراً؟».

نظرت الكونتيسة إلى يدها، حيث الخاتم موضوع السؤال، كما نظرت إليه لوسي أيضاً لترى ياقوتة حمراء داكنة في إطار ذهبي أثري.

قالت الكونتيسة بصوت كهرير القطط: «كارو جوليو، مكر منك إثارة مثل هذا الموضوع بوجود غرباء».

هز جوليو كتفيه دونما اكتراث: «محاولاتي لهذا كانت دون جدوى، وكما قال لك محاموك، الخاتم وراثي، وليس قطعة مجوهرات عادية، وكان يجب إعادته إلى أملاك فالكون بعد موت أبي».

ضحكت الكونتيسة ضحكة ماكرة: «كي يقدمه الكونت فالكون الجديد إلى زوجته؟ لكن، ليس لك زوجة ميوكارا».

ورفعت كتفيها بهزة كتف أنيقة: «لذا، فالأمر بين يديك».

ثم استقرت ابتسامتها على أنجيلا: «كل ما عليك فعله هو إعلان خطوبتك، وسوف أضع الخاتم في يد عروسك المستقبلية».

مدت يدها، تتفحص الياقوتة التي كانت تتوهج كالدم والنار على إصبعها النحيل.

قال جوليو فالكون: «هذا جدال ممل، ليس لخطط زواجي أية علاقة بالمسألة، أكنت سأبقى أعزباً حتى نهاية عمري أم لا».

ارتفع حاجباها المقوسان تحدياً: «وهل هذا ما تنويه؟».

قال ببرود: «لا، بل سأتزوج قبل نهاية السنة. لكن هذا، وعذراً عزيزتي كلوديا، ليس من شأنك أبداً».

ضحكت كلوديا مجدداً: «يا لهذه الدراما..».

ـ سوف نعتذر لضيوفنا، لتعريضهم لهذا الخلاف العائلي.

ونظرت إلى جوليو بعينين قاسيتين: «أنا أستبقي الخاتم إعزازاً لذكرى والدك العزيز، ولا أصدق أنه بإمكانك أن تكون دون قلب هكذا لتحرمني منه دون سبب وجيه».

رد ببرود: «أسبابي هي وجيهة، ومرتكزة على القانون».

رفعت كلوديا رأسها بتكبر: «حين تتزوج سأرده لك، وإلى ذلك الحين، إنه آمن تماماً معي».

كان ماركو لا يزال يتناول آخر الآيس كريم من طبقه، لكن لوسي لاحظت أن عيني إيميليا كانتا باتساع الصحن.

وقررت بأنه لا يجب أن يسمعا كل هذا، ولا هي كذلك.

ودفعت كرسيها إلى الوراء: «بإذنك سنيورا، سآخذ الولدين إلى النوم. لقد كان يوماً متعباً».

قال ماركو بإشراق: «أربع وعشرون ساعة كاملة».

ودار الضحك حول المائدة، مزيلاً التوتر.

مدت الكونتيسة يديها إلى الولد: «تعال إليّ كاديسيمو».

وركض حول الطاولة إليها لتحضنه وتقبله. حين جاء دور إيميليا، لاحظت لوسي بغضب أن جدتها لامست خد الطفلة بيد غير مبالية واستدارت عنها فوراً.

عندها قالت فياميتا: «سأجيء معكم».

وساعدت لوسي على إخراجهما من غرفة الطعام: «يا له من شجار!».

همست فياميتا بهذا وهما تسيران عبر الحديقة التي يعطرها الليل، والولدان يجريان أمامهما.

ـ المشكلة أن للخاتم قيمة كبيرة، ويجب وضعه في المصرف. وتعرف ماما هذا، لكنها دائماً تتذرع بأشياء كي لا تعيده، والآن أصبح جوليو غاضباً، ولا عجب في هذا.

ثم رفعت عينيها إلى السماء: «هكذا ستكون الحرب بينهما، وكل ما آمله أن لا تفعل ماما شيئاً غبياً، لو أخذها جوليو إلى المحكمة، كما قد يفعل، فهذا سيدمرها».

قالت لوسي مترددة: «ألا يمكنك محادثتها بالمنطق؟».

ـ لن تصغي لأحد، وهي تستفز جوليو باستمرار، كما فعلت الليلة.

وتنهدت: «ربما ما كان يجب أن يقول ما قال، لكنني لا ألومه».

قالت لوسي متلعثمة، والكلمات تطعنها كالسكاكين: «ربما كانت تحاول وخزه ليتقدم بطلب يد ابنة خالتك في الحال».

ـ إذن فهي لا تعرف جوليو، هل رأيت كيف تصرفت أنجيلا مع جوليو في المساء؟

ـ أجل، رأيت.

ـ وهذا المسكين، فيليب، الذي أرى الآن الغرض من وجوده.

وتنهدت فياميتا مجدداً: «لو كنتُ مكانه، ما بقيت هنا أتلقى الإذلال أكثر من هذا، أليس كذلك؟».

قالت لوسي بهدوء: «ربما يحبها، ربما هو مستعد لتحمل أي شيء لمجرد أن يكون معها، حتى ولو كان يعرف في أعماقه أنه يضيع وقته، وكل ما يعده به المستقبل هو الألم والوحدة».

نظرت فياميتا إليها نظرة ذاهلة: «كلامك هذا نابع من القلب، أعتقد..».

وأدركت لوسي أن كلامها يفضح الكثير، ورأت الأسئلة على شفتي فياميتا المضمومتين فتهربت بأن أسرعت بخطواتها تنادي الطفلين: «على مهلكما، المكان مظلم وقد تقعان وتؤذيان أنفسكما».

مر وقت نوم الولدين دون مشكلة. حين غادرت فياميتا أخيراً إلى الڤيلا، خرجت لوسي لتجلس على مقعد حجري في الخارج. كان الليل مليئاً بالأصوات والحركة: صرير زيزان الليل، طيران الفراشات حول المصباح، وتغريد العصافير.

كان كتابها على ركبتيها، لكنها لم تفتحه، لأنها أطلقت العنان للأفكار، التي كان معظمها تعيساً، كيف يمكن لحياتها كلها أن تتغير بسرعة؟

وقالت لنفسها وليس للمرة الأولى، هذا غير عقلاني، غير منطقي.

منذ أول لقاء بينهما، أدركت الخطر المحدق بها، وعرفت ما سيحدث لها، لكنها لم تستطع المقاومة. لقد اكتسحتها بعجز قوة القدر، ومن يستطيع التخمين إلى أين ينتهي بها هذا؟

مع كل هذا كان هناك خطوة إيجابية. لقد قبّلت إيميليا قبل النوم، ولو أن الاحتضان لم يكن متبادلاً، إلا أنه لم يكن مرفوضاً كذلك. ربما لو استطاعت المساعدة في استعادة توازن الصغيرة، وإعطائها الإحساس بقيمة ذاتها، فإن وجودها في توسكانا سيكون له معنى.

صوت وقع أقدام تتقدم، غزا أفكارها وجلست بحدة. وهي تشعر بتوتر جسمها لمحت طيفاً طويلاً يتقدم إلى الفناء فسبقته بالقول:

ـ مساء الخير مرة أخرى سنيور؟ هل جئت لشجار آخر؟

قال بلهجة جافة: «لا، فمعاركي انتهت لهذا اليوم، جئت أتفقد الولدين، ولأتأكد أن لديك كل ما تحتاجين إليه».

وصمت قليلاً: «هل لي بالجلوس؟».

ـ ألا يجب أن تعود إلى ضيوفك؟

قال بصوت منخفض: «لقد دعوت فياميتا والولدين إلى هنا، ولأن فياميتا تلعب الآن الورق، والولدين نائمين، فأنا أستطيع إرضاء نفسي كما أشاء».

ابتعدت إلى آخر المقعد، تشد أطراف تنورتها حولها، ولاحظ جوليو حركتها بحاجبين مرتفعين ثم جلس على الطرف الآخر.

ـ ألست متوترة، وأنت بعيدة عن المنزل الرئيسي؟

ـ ليس حتى هذه اللحظة. وأعتقد أنك ستقول لي إن هناك عصابات لصوص تجوب الجوار.

ـ لا، وشكراً لله.

صمت قليلاً: «لكنك قرب البركة ذكرتِ أنكِ ظننتِ أن هناك شخصاً يراقبك».

هزت كتفيها: «حسن جداً، أجل، لكنني قد أكون مخطئة».

ـ ولأنني لم أكن أنا، فهذا يعني أنه لم يوجد أحد في الحديقة؟

ردت بضعف: «قد تكون قطة».

ـ سي، أو حيوان برّي، أو ذئب من التلال.

قاطعته ضاحكة: «أو مجرد مخيلتي، هناك حكمة صينية تقول: «فلنعش في أوقات مثيرة للاهتمام». حسن جداً، لقد عشتُ في أوقات رائعة مؤخراً، وربما جعلني هذا أصاب بعقدة الارتياب قليلاً».

قطب جوليو حاجبيه: «لا أعتقد أنك هكذا، لكنني أعرف أنك غير سعيدة، وهذا يقلقني، لأنني أنا الملام».

ثم أخذ نفساً: «لم أكن أقصد أن تتأذي هكذا لوسيا، صدقيني».

بدا أن كل أنفاسها علقت في حنجرتها.

ـ أرجوك، أفضل عدم مناقشة هذا.

ـ لوسيا..

ومد يداً نحوها، فانكمشت.

ـ لا، ألا تستطيع أن ترى، ألا تستطيع تفهم أن الكلام في الموضوع يزيد الأمور سوءاً؟ ألا يمكن إظهار القليل من الرحمة لي على الأقل.

همس: «يوميو، لم أكن أعرف أن الجرح عميق هكذا..».

وتعكر الوجه الأسمر: «أليس هناك أي شيء يمكن أن أفعله من أجلك؟».

ـ لقد قلتَ هذا الصباح إنه من الأفضل لي الرحيل.

وشدت يديها المرتجفتين في قبضتين، وخبأتهما بين طيات تنورتها.

ـ وأنا، توصلت إلى الموافقة معك، وسأرحل حال إيجادك أحد غيري يرعى الولدين.

صمت للحظة، ينظر إلى الحصى الخشنة، ثم قال بهدوء: «كما ترغبين، لتريسا ابنة أخت تتدرب لتكون معلمة مدرسة، وتبحث عن عمل للعطلة، سوف أرى ما يمكن ترتيبه».

وصمت مرة أخرى ليسأل: «وماذا ستفعلين أنت؟».

ـ ما خططت له أصلاً، سأعود إلى انكلترا على أول طائرة.

وبللت شفتيها بلسانها: «وأتابع حياتي».

ـ كم تجعلين الأمر يبدو بسيطاً.

تحت سطح كلماته الناعمة، كان يختلط الغضب مع المرارة.

وقالت لنفسها: كم هو متعقل، مع ذلك كلانا يعرف أنه ليس هكذا.

قبل أن تستطيع التخمين بما سيفعل، وصل إليها، وشدتها ذراعاه القويتان إليه بخشونة ودون رحمة وعانقها بقوة.

لثوانٍ قصيرة، رأت وجهه في ضوء القمر، الخطوط الخشنة محفورة على جانب فمه، واللمعان في عينيه، وفكرت: إنه الصقر مع فريسته، على وشك أن ينقض ليحملها إلى الظلمة الأبدية.

وشدّ ذراعاه حولها بقوة، يطلب استجابتها، كانت لوسي تعرف أن عليها المقاومة وضربه بقبضتيها، لتجبره على تركها.

لكن عناقه لها كان مثل مخدر مغوي يستنزف قوة المقاومة منها. وتراجع رأسها إلى الوراء عاجزة بين ذراعيه.

حين ارتفعت يداها، لم تكن دلالة الدفاع عن النفس، بل لتطبقا على أوتار القوة في كتفيه، وتشدانه إليها.

هذا ما كانت تريده بالضبط، فما فائدة الادّعاء عكس هذا؟ لا يمكنها نيل حبه أو مشاركته حياته لكنها سوف تأخذ القليل الذي يمكنه تقديمه إليها، لتكون ذكرى تدفئها وتسليها في الفراغ الكئيب الذي ستعيشه في المستقبل.

وكانت معانقته القوية لها، توقظ فيها أشواق لم تكن تدرك وجودها.

وأحست لوسي بنفسها تشهق بشوق مجفل، ورأته يبتسم، وأحست

بالابتسامة وكأنها حنان سحري ينسج خيوط عنكبوت مثيرة توقعها في الشرك، وكما كانت تعرف أن هذا سيحدث لها، وكأنها ولدت لأجل هذه اللحظة بالذات.

ـ مابيلا.. ميا كاريسيما.

كان صوته هامساً، أجشّ فوق بشرتها، وبدا وكأنه غريب تقريباً، ورفع رأسه ينظر إليها: «هل تعرفين أن عناقك كعناق القمر؟».

ثم أمسك يديها يقبلهما: «هكذا أريدك».

الكلمات كانت بالكاد هامسة. وعلقت الأنفاس في حلق لوسي، وانكمش كل جسمها ترقباً.

لكن الصراخ الذي شق سكون الليل، كان صراخاً مختلفاً، صوت طفل يصيح خوفاً.

وتشتتت البهجة فجأة. وانتزعت لوسي نفسها من بين ذراعيه.

ـ إيميليا.. ! ماذا يفعل ماركو بها؟

وطارت إلى داخل الكاسيتا، تصعد السلم درجتين في كل خطوة، وجوليو خلفها تماماً.

كانت إيميليا تجلس في الفراش، ويداها مطبقتان على أذنيها، وجهها متلوي القسمات، وفمها مفتوح لصيحة أخرى.

ركعت لوسي أمام السرير: «هس حبيبتي، ما الأمر؟».

وشدتها إلى ذراعيها.

وتدفقت الصغيرة بالبكاء والكلام باللغة الإيطالية.

لكن، مهما كانت المشكلة، لاحظت لوسي بامتنان أن ماركو غير ملام، نظرة إلى السرير الآخر كشفت أنه غارق في نومه.

قال جوليو يترجم ما قالته: «لقد رأت حلماً مزعجاً».

وجلس على الطرف الآخر من السرير: «كانت في سيارة اصطدمت، ولم تستطع الخروج منها».

ملست لوسي الشعر الحريري: «لكن هذا لم يحدث إيميليا، أنتِ هنا

وآمنة تماماً».

استدارت الطفلة إلى جوليو: «زيو جوليو..».

ـ لوسي على حق كارا..

وأخذ جوليو الجسم الصغير المبتل عرقاً بين ذراعيه، وبدأ يجفف وجهها بمنديله.

ـ كل شيء على ما يرام.

اعترضت إيميليا: «لكن ليس أليسون، لقد أصبت بسوء».

قال موافقاً: «أجل، لكنها ستكون بخير مرة أخرى، وقريباً. ولأبرهن عن هذا، سآخذك لتزوريها، ساقها في قفص كبير من الرباطات، ولسوف تسمح لكِ برسم صورة عليها».

مات النحيب مع تفكير إيميليا بالترقب المثير: «حقاً وصدقاً؟».

ـ حقاً وصدقاً، والآن يجب أن تستلقي وتعودي إلى النوم.

ـ أريد شيئاً أشربه، وأن تبقى معي زيو جوليو.

قالت لوسي بهدوء: «سأسخن لها بعض الحليب».

ونزلت إلى الطابق الأسفل.

وأدركت لوسي وهي تشغل نفسها أمام الطباخ أن كابوس إيميليا، كان سبب خلاصها من رجل لن يراها سوى كمصدر تسلية عابرة، بعدها سيتركها لتحيا وحدها مع الألم، والعذاب العاطفي.

وراحت توبخ نفسها: هل سأتعلم يوماً؟ أم أنني ببساطة مجنونة تهذي؟

لكن، وبامتنان، أعادت الظروف تعقلها إليها دون الكثير من الأضرار، ما عدا ربما احترامها لنفسها.

عضت شفتها السفلى بأسنانها وهي تصب الحليب وتحمله إلى الطابق الأعلى، وكانت إيميليا هادئة بما يكفي، حتى أنها كانت تضحك قليلاً على ما كان يقوله جوليو لها، وشربت الحليب دون اعتراض، ثم استقرت إلى الخلف فوق وسادتها تتمسك بيد خالها بقوة.

وأعلنت: «ويجب أن تبقى لوسيا كذلك، كانت أليسون تقص علي القصص، وأحب أكثر من أي شيء قصة سندريلا».

التقت عينا جوليو بعيني لوسي عبر السرير الصغير: «فلتكن ساندريلا إذن. أتعرفين القصة كولامبينا؟».

أشعر أنني أعيشها، وسارعت بابعاد عينيها عنه وقد حان منتصف الليل.

وأحست بخجل شديد، مدركة بقوة وجود جوليو قبالتها. في الواقع كان السيناريو الحميم داخل غرفة النوم، وكلاهما متحدان لمواساة الصغيرة، أمر مؤلم لا يُحتمل.

لكن، كان هناك نوع من الهدوء الآمن يمكن أن تتمتع به في إعادة رواية قصة حب عمرها من عمر الزمن. وأبقت صوتها ناعماً مستوياً. وقبل أن تصل إلى هروب ساندريلا بوقت طويل، تاركة وراءها خفها الزجاجي على سلم الأمير، كانت إيميليا قد نامت.

وقفت لوسي مترددة: «ستكون بخير الآن، لكنني سأنام وباب غرفتي مفتوح، لمجرد الحيطة».

وقف جوليو بدوره، يبعد يده عن الأصابع الصغيرة بحذر.

ـ أعتقد أنك خسارة في عالم الإعلان ميابيلا.

وتفحصتها العينان الكهرمانيتان وهي تقف في طريقها إلى الباب لتزيل إصبع ماركو من فمه، وأكمل: «يبدو أن لك موهبة مع الأولاد».

ـ ليس بشكل خاص.

وخرجت من الغرفة لتنزل السلم إلى المطبخ، ورأسها مرتفع بتصلب وجوليو يلحق بها.

وصلها صوته بهدوء: «هل أنت واثقة أنك ما زلت ترغبين في الرحيل؟».

ردت بانتضاب: «أكثر من أي وقت مضى».

وأبقت ظهرها إليه وهي تغسل الكأس الفارغ.

قال: «أنت تظنين أنك لو بقيت سأحاول مغازلتك مرة أخرى، لن أفعل هذا، تصرفي الليلة كان غلطة كبيرة. لكن، والأمور كما هي، ليس من حقي لمسك»...

تمتمت: «على الأقل نحن متفقان على أمر واحد».

تابع وكأنها لم تقل شيئاً: «ليس لدي عذر أقدمه، ما عدا أنك كنت جميلة جداً».

قالت بلهجة لاذعة: «وما هو العذر الذي أقدمه أنا؟ من الواضح أنك خبير إغواء؟».

ـ حسناً إذا كان هذا ما ترغبين بتصديقه. على أي حال لن يكون هناك تكرار لما حدث، فهل هذا هو الضمان الذي تسعين إليه؟

قالت بصوت متكسر: «لا أريد أية ضمانات، بل أريد حريتي فقط».

وأخذت نفساً عميقاً: «وفي أسرع وقت ممكن».

قال بقساوة: «إذن ستحصلين على ما تريدين، وأرجو لمصلحتك، أن لا يكلفك ذلك كثيراً».

ثم خرج وأغلق الباب خلفه، وأحست أنها تتمسك بحافة المغسلة بقوة حوّلت عقد أصابعها إلى اللون الأبيض.

ببطء، وألم فتحت أصابعها.

فكرت: إذن هذه هي النهاية، ويجب أن أكون مسرورة، لكنني لست هكذا، أوه، يا إلهي العزيز، لستُ مسرورة.

وأحست بشهقة بكاء جافة ومؤلمة، تشق طريقها بقوة من الضيق الذي يضغط على صدرها، وتتفجر دموع ارتياح، على الأقل...

***

٧ ـ مد وجزر

كانت ليلة طويلة بائسة تلك التي قضتها لوسي تتقلب متململة فوق فراشها القاسي.

أحست وكأنها عالقة في فخ، فكرة الرحيل، وعدم رؤية جوليو مرة أخرى، كانت لا تحتمل أبداً. وهي تعرف أن ذلك سيدمرها تماماً، ومع هذا فهي أيضاً لا تجرؤ على البقاء بعدما حدث.

ولم تستطع كذلك التوصل إلى فهم كيف أن هذا الدمار العاطفي غزا حياتها، كيف أن كل قيمها انقلبت رأساً على عقب في أقل من ساعات؟

فكرت: «لم أعد أعرف من أنا، أو ماذا يحدث لي».

كانت تنظر إلى الحب على أنه التزام ثابت يأتي من إعجاب متبادل، واهتمامات مشتركة، وليس قوة عاصفة من العذاب، والرغبة، والغيرة، يزيد من وقودها تجاذب جسدي لا يقاوم، يجتاح حياتها، ويدمر كل مفاهيم الأمان عندها.

وتابعت نقدها الذاتي: «هذا ليس حباً، هذا تجاذب جسدي».

وربما سيموت بسرعة ودون توقع كما عصف بحياتها بسرعة.

وهذا، على أية حال، كل ما تستطيع الصلاة لأجله. لكن نومها المضطرب، لم يكن سببه فقط أفكارها المتعبة، فالبعض منه مرده الإحباط الذي اضطرت للاعتراف به. لقد أحست أنها ارتفعت إلى الأعالي، ثم وقعت في هوة مظلمة من الألم والشوق.

وشعرت بأنها تذوب حنيناً لجوليو، وفي الوقت عينه تشعر بالسقم.

استدارت تدفن وجهها الملتهب في الوسادة، تنفيس مؤقت ليس ما هي بحاجة إليه، فقط بين ذراعي جوليو يمكن لوعد الحب أن يتحقق.

كان الوقت قرابة الفجر قبل أن تستسلم أخيراً إلى نوم غير مستقر، ومضت دقائق معدودة قبل أن يوقظها ماركو بصياحه.

ـ استيقظي لوسيا، أنا جائع.

وعادت إلى وعيها الكامل مجدداً.

كان يركع على طرف سريرها، يختبر قوته بسلسلة قفزات ناشطة.

قالت لوسي متعبة: «ماركو، اذهب وارتدي ثيابك، وسأكون معك حالاً».

ـ هل كنا عاقلين؟ ألم تصل الأربع وعشرون ساعة بعد؟

ردت بحزم: «لا، لا زلت مضطراً لأن تفعل ما يقال لك».

كان يكافح ليرتدي بنطلوناً قصيراً وتيشيرت حين دخلت غرفة الولدين بعد دقائق، وكانت إيميليا مرتدية ثيابها، تجلس على سريرها تقرأ، وأرسلت إلى لوسي نظرة قلق، لكن ودية.

وهذه خطوة في الاتجاه الصحيح.

الفطور في الڤيلا كان على طريقة المائدة المفتوحة (بوفيه). قدمت لوسي الطعام للولدين، ثم صبت لنفسها مربى الكرز، وحبة كمثرى وخبز.

لم تكد تجلس حين وصلت أنجيلا، وهزت رأسها للجميع دونما اكتراث وتقدمت إلى الطاولة الجانبية، ودون أن تنظر حولها قالت: «خالتي تريد الطعام في غرفتها، هل ترتبين لها صينية، لوسي، أليس هذا اسمك؟».

للحظة ذهول، تفحصت لوسي ظهر الفتاة، التي ترتدي بنطلوناً قصيراً أبيض اللون وقميصاً مماثلاً. وهي تواجه ابتسامة مرحة من إيميليا أدركت أن مشاعرها ظاهرة تماماً على وجهها وتماسكت بسرعة.

ـ طبعاً، آنسة.

- بروكهيرست.

وتقدمت أنجيلا ببرود إلى الطاولة، ونظرت إلى ماركو نظرة ازدراء.

- هل يجب أن يوسخ فمه هكذا؟

هزت لوسي كتفيها وهي على وشك تأنيب ماركو للسبب عينه، لكنها قالت: «أحب أن أرى ولداً له شهية صحية».

وغادرت الغرفة نحو المطبخ.

حضرت تيريسا صينية مفروشة بغطاء أبيض، وبعض الأواني الصينية الخاصة المزينة بتصاميم زهور ذهبية، وإبريق قهوة لامع.

وبينما لوسي تحمل الصينية نحو السلم أوقفها صوت جوليو: «ماذا تفعلين؟».

بقلب خافق، استدارت لوسي ببطء. كان يقف أمام الباب الأمامي المفتوح.

قالت: «سآخذ فطور الكونتيسة إلى غرفتها».

تقدم بضع خطوات: «وبناء على تعليمات من؟».

ولاحظت لوسي بألم ولأول مرة منذ تعارفهما القصير أنه غير مكترث بترتيب هندامه كعادته. كان يحتاج إلى حلاقة ذقن، وبدا أنه لا زال يرتدي الملابس التي كانت عليه ليلة أمس.

ظهرت أنجيلا من غرفة الطعام: «تعليمات الخالة كلوديا حبيبي، أرجوك لا تقفي هنا.. لوسي، الكونتيسة لا تحب القهوة الباردة».

رد جوليو بصوت كالثلج: «ولا تحب الآنسة ونترز كذلك أن تعامل وكأنها خادمة، لدى خالتك خادمة تخدمها، أين هي؟».

ضاقت عينا أنجيلا بطريقة بشعة: «على الأرجح، تكوي ملابس الخالة كلوديا، على أية حال كارو، ماذا في الأمر؟ إنها مجرد صينية فطور».

أخذ جوليو الصينية من لوسي: «بالطبع هي هكذا، وبما أنني صاعد إلى فوق، سوف أعطيها لها بنفسي. وفي الوقت عينه، سأوضح لها دور

لوسي في هذا البيت».

كان في ضحكة أنجيلا الخافتة صرير حاد: «أوه، أعتقد أننا عرفنا هذا جميعاً، حبيبي. لكن، من أنا لأعترض على مغامراتك الطائشة؟».

شعرت لوسي بالقرف، واستدارت لتعود إلى غرفة الطعام ولقهوتها الباردة. لكن، ليس قبل أن تسمع همسة أنجيلا المسرحية: «على أية حال، إذا كنت تحاول جعلي أغار حبيبي، يجب أن تفعل هذا مع أفضل من هذه العصا الشاحبة».

وآمنت لوسي أن هذا ما تستحقه.

كان من الواضح أن اليوم سيكون حاراً جداً، وأمضت لوسي جزءاً من فترة الصباح بإلهاء الولدين في صنع بطاقة تمني بالشفاء لأليسون. لكن كل ما صنعاه كان هو الشجار حول التصميم، لذا نفد صبرها أخيراً، وأنزلتهما إلى البركة للسباحة. وأخذوا يمرحون جميعاً في المياه الضحلة بسعادة.. إلى أن سمعوا صوت أنجيلا الحاد: «ما هذا الصوت المزعج؟».

كانت تقف على حافة البركة، وفيليب خلفها وهو مضطرب. ترتدي ثوب سباحة أسود وذهبي، وسترة حريرية مماثلة اللون.

وتابعت أنجيلا بغضب: «لقد جئتُ لأستريح، ألا يمكنك أخذ هذين المتوحشين إلى مكان آخر للعب؟».

ردت لوسي بهدوء: «لقد جئنا إلى هنا لتونا، آنسة بروكهيرست».

سوت أنجيلا زاوية قبتها الأنيقة: «وما الفارق؟ أنا أقول لكِ أن تذهبي من هنا، أريد بعض الهدوء، وبعض الخلوة».

والتفتت إلى فيليب بابتسامة سريعة، محملة بالمعاني، ثم نظرت إلى ثوب سباحة لوسي الرخيص الثمن بازدراء: «وأنا واثقة أن كلوديا لا تسمح لليد المأجورة باستخدام البركة في الوقت ذاته مع الضيوف».

سيطرت لوسي على غضبها، ورفعت الولدين المحتجين من الماء، ولفتهما بالمناشف، ثم قالت: «سأحاول تذكر هذا».

ردت أنجيلا بحدة: «يجب أن تتذكري، ثم لا تنتفخي كثيراً عزيزتي،

لمجرد أن جوليو تحرش بك، فهذا بالنسبة له أمر عادي وهذا كل شيء».

ربطت لوسي قميصها الرقيق حولها بشيء من التروي. بالرغم من تألق أنجيلا، إلاّ أن ساقيها كانتا سمينتين، وأحست لوسي بالارتياح لذلك.

سألت ببرود: «وأي منا تحاولين إقناعه آنسة بروكهيرست؟».

وأمام المزيد من إحراج فيليب الظاهر، سارت لوسي بالولدين بعيداً قبل أن تستطيع أنجيلا الرد.

كان الولدان يبكيان في الوقت الذي وصلوا فيه إلى الكاسيتا، ولم تستطع لوسي لومهما، وأحست برغبة في البكاء مثلهما حين رأت من كان ينتظرهم، وهي تضرب قدمها بالأرض بسلطوية ونفاد صبر.

قالت الكونتيسة بحدة: «ها أنتِ إذن، أخيراً. كُنت أتساءل كم من الوقت سأبقى منتظرة».

ردت لوسي بجفاء: «أنا آسفة، لم أكن أعرف أنك تريدين رؤيتي».

تفرست فيها العينان القاسيتان: «من المعتاد تقديم نفسك إلى سيدة البيت كل صباح لأخذ التعليمات، هل هذه ثياب عمل؟».

تنهدت لوسي في نفسها: «لا كونتيسا، كنتُ سأغيّرها فوراً».

ـ أنا مسرورة لسماع هذا.

وصمتت، كانت أنيقة في فستان بلون التوت الأحمر، وسترة مماثلة، وخاتم فالكون الياقوتي يتوهج في يدها.

ـ سوف أذهب للغداء مع أصدقاء قرب سيينا، سآخذ ماركو معي، لذا اهتمي بأن يكون مرتباً ونظيف الثياب كما يليق.

قالت إيميليا بصوت باكي: «لكن نونا، زيو جوليو قال إنه سيأخذنا لرؤية أليسون في المستشفى».

ـ لدى خالك أشياء أهم يقوم بها بدل الاهتمام برغبات فتاة صغيرة.

والتفتت إلى لوسي: «ستأتين بماركو إلى القيلا ما أن يصبح جاهزاً، فأنا أرغب في المغادرة فوراً».

سألت لوسي بحذر: «ماركو لوحده؟».

ـ لقد سمعتني كما أعتقد..

وتفحصت الكونتيسة الدهان على أظافرها: «لدى أصدقائي العديد من الأشياء الغالية الثمن، وإيميليا، لسوء الحظ، لا يمكن الوثوق بها، ومن الأفضل أن تبقى هنا».

تجهم وجه إيميليا: «أنا لا أريد الذهاب على أية حال».

ووضعت لوسي يداً مهدئة على كتفها الصغير، وهي تصرخ في وجه جدتها: «أنا أكرهك.. أكرهك».

قالت الكونتيسة بصوت كقطرات الماء البارد: «يا لهذا التفجر العاطفي، كيف تجرؤين على مخاطبتي بهذه الطريقة؟ هل أنت واثقة أنك مؤهلة سنيوريتا للتعامل مع مشاكل مثل هذه الطفلة؟».

وقفت لوسي بشجاعة، تمسك بإيميليا الباكية، وردت ببرود مماثل: «هذه المشكلة من صنعك بالتأكيد، مثلها مثل غيرها».

ـ أنتِ وقحة.

ـ لا، بل صادقة.

ووضعت لوسي يدها على كتف ماركو: «اذهب إلى الداخل كارو، وانتظرني».

أخذ يقفز بهياج، وتجاوزت عيناه إلى الخلف: «أريد أن أبقى هنا. زيو جوليو، تعال وانظر لوسي ونونا تتشاجران».

دخل جوليو مسرعاً إلى الفناء، وعيناه الكهرمانيتان تنظران إليهم جميعاً: «ماذا يجري هنا؟ لماذا تبكي إيميليا؟».

ردت الكونتيسة: «زوبعة في فنجان، لكن يجب أن أقول لك كارو جوليو، هذه السنيوريتا وينترز ليست ناضجة بما يكفي لتعتني بالولدين. وأنا أطالب بصرفها فوراً».

التوى فم جوليو الرائع قليلاً: «أنت متأخرة جداً كلوديا، يبدو أن السنيوريتا تشاركك الرأي. لقد قدمت استقالتها مساء الأمس».

بدت كلوديا متفاجئة: «أوه، ومَن سيحل مكانها؟».

ـ ابنة عم تيريسا، دوروثي، في حال تمكنّا من الاتصال بها.

وأدار إيميليا لتواجهه: «ما الأمر صغيرتي؟».

ـ نونا قالت إنني سارقة.

هزت الكونتيسة كتفيها: «قلت فقط إنني لست على استعداد لأخذها إلى منزل أسرة ماسيريني للغداء إلى أن تتحسن تصرفاتها».

مرر جوليو إصبعه على خد الفتاة المبلل بالدمع: «إذن، يمكن تناول الغداء معي كارا، اذهبي واغتسلي وغيّري ملابسك».

كانت ابتسامة إيميليا كالشمس البارزة من بين الغيوم، لكن النظرة التي أرسلتها إلى جدتها وهي تدخل الكاسيتا كانت مليئة بالكراهية، ولحق ماركو بها.

قالت الكونتيسة: «عزيزي جوليو، لا يمكنك ترك ضيوفك هكذا، قد تتساءل أنجيلا ماذا حدث لك».

ـ إذن، ستتمكنين من القول لها كلوديا قبل ذهابك إلى الغداء مع أسرة ماسيريني.

ثم أضاف: «كما أرى أنت ترتدين خاتم فالكون مرة أخرى».

ضحكت الكونتيسة ضحكة رنانة: «طبعاً كارو، فمجوهرات سيمونيتا رائعة دائماً».

قال بصوت ناعم: «وهل تظنين أن من الملائم استخدامك لإرث عائلي، عمره قرون، كي تتنافسي.. مع تلك.. الأرتيستا؟».

اشتد ضغطها على فمها: «كيف تجرؤ على إهانة إحدى صديقاتي؟».

ـ أنت مخطئة، من المستحيل إهانة سيمونيتا ماسيريني، أطلب منك مرة أخرى كلوديا، إعادة الخاتم لي على الفور، إنه لم يعد ملكاً لك.

ـ وأكرر، عزيزي جوليو، أنني سأكون سعيدة بإعادته. لكن لزوجتك المستقبلية، ولا أحد غيرها، كما تقتضي التقاليد.

أدارت نظرة متوترة إلى لوسي: «ألا زلتِ هنا سنيوريتا؟ فمن

المفترض مساعدة حفيدي على تغيير ملابسه».

قال جوليو والتسلية في عينيه، مختلطة بشيء أكثر عمقاً واضطراباً: «وأقترح تغيير ملابسك أيضاً، لوسيا. فزيارة فيرنيز تتطلب ثوباً رسمياً أكثر، كما أعتقد».

كان يرتدي بنطلوناً أسود ضيقاً وقميصاً أبيضاً، له لمعان الحرير، وغير مزرر الياقة. ومررت لوسي لسانها على شفتيها الجافتين وسألت مترددة: «وهل تتوقع مني الذهاب معك؟».

ـ طبعاً، وإلى أن تحضر بديلتك، ستستمرين في واجباتك كالمعتاد، إيميليا تحتاج إلى من يبقى معها في السيارة في حال أصابها الغثيان مجدداً.

نظر إلى ساعته: «هل خمسة عشر دقيقة وقت كافٍ؟».

هزت لوسي رأسها ودخلت الكاسيتا، وهي تصعد إلى الطابق الأعلى سمعت الكونتيسة تتجادل مع جوليو بلغة إيطالية غاضبة، وسمعت رده البارد القاطع. وكان الولدان يصغيان كذلك كما اكتشفت لوسي فأبعدتهما بحزم عن النافذة، وأغلقت درفها.

قال ماركو ولوسي تدخلهما تحت الدوش: «إنهما يتشاجران حول الخاتم الأحمر الذي ترتديه نونا».

قالت إيميليا بحرارة بينما لوسي تغسل لها شعرها: «إنه ليس لها، ولا يجب أن يكون معها، سمعت بابا يقول لماما هذا عدة مرات».

قالت لوسي بحزم: «إنه جدال خاص بين اثنين كبيرين، وليس من شأننا أبداً، والآن ماذا سترتديان؟».

لأول مرة لم تكن إيميليا مشكلة، فقد ارتدت بنفسها تنورة حمراء قصيرة وبلوزة بيضاء قبل دخولها غرفة لوسي مع مجفف الشعر.

على أية حال، بذلت لوسي جهداً لجعل ماركو يرتدي الشورت المخملي والقميص الحريري، اللذين ارتأت أن الكونتيسة ستراهما مناسبين، لكنه تذمر: «أكره هذه الثياب، لكنني أحب الذهاب إلى الغداء مع أصدقاء نونا، إنهم يعطونني الهدايا».

قالت لوسي وهي تمشط شعره بعيداً عن جبهته: «أنتَ تحصل على الكثير».

بعد ترتيب الولدين، أرسلتهما لوسي إلى الطابق الأسفل مع تعليمات حازمة بعدم توسيخ أنفسهما، وبعدم الشجار بينما هي تغير ثيابها.

قالت لنفسها وهي تبدل الثياب: أنا ألعب بالنار، وارتدت ثوباً أصفر شاحب، وربطت شعرها إلى الوراء بغطاء رأس باللون ذاته، لكنني لن أهتم، لن أهتم بشيء سوى أنني سأكون معه ثانية، ولو لفترة قصيرة.

كان الولدان هادئين مرتبين بشكل لا يصدق، حين أوصلتهما لوسي إلى الڤيلا.

كانت فياميتا في السالاتو، تتصفح مجلة، ورمتها بعيداً لتعانق ولديها وتقنعهما بأن يكونا طيبين.

قال ماركو: «ولوسيا، يجب أن تكون طيبة كذلك».

لمع شبح ابتسامة في عيني فياميتا: «سي، وستكون إيميليا هناك للتأكد من هذا».

ومدت يدها إلى جوليو: «كن حذراً ميو كارو، أحياناً أعتقد أنك تسرع كثيراً».

قال جوليو بخفة: «حكمتك أبعد بكثير من عمرك».

وطبع قبلة على معصمها، لكن النظرة التي تبادلاها كانت محملة بالمعاني.

لاحظت لوسي هذا، ثم أبعدت خيالها عن تفكيرها مع دخول الكونتيسا تطالب بحفيدها بطريقة متكبرة.

بعد التلويح لماركو وهو مع جدته، أحضر جوليو سيارته إلى الباب الأمامي، وأجفلت لوسي لرؤية السيارة اللماعة المنخفضة.

ـ أوه، لكن هذه ليست سيارتك.

رد ساخراً: «إنها واحدة من سياراتي، وأعتقد أنها ستكون الأكثر راحة، لأننا ثلاثة».

قالت إيميليا: «أريد الجلوس في المقعد الأمامي».

وضعها جوليو في المقعد الخلفي بحزم: «لا يا صغيرة».

ثم توقف يرفع حاجبيه بينما كانت لوسي تصعد إلى جانبها.

ـ ما هذا؟

قالت بهدوء: «أعتقد أنني يجب أن أكون معها، في حال كما قلتَ، واجهت مشكلة».

التوى فمه.

ـ هل أنت واثقة أنك لا تفكرين بمشكلة خاصة بك؟

نظرت لوسي إليه مباشرة: «واثقة تماماً، فلستُ أنا من يرى كوابيساً».

ساد صمت قصير، ثم قال: «سامحيني لوسيا، لم أكن بحاجة لأتذكر هذا».

وابتسم لإيميليا: «أترين كارا، بإمكانك الآن التظاهر بأنك ليدي عظيمة، أميرة، مع سائقك الخاص والمرافقة إلى جانبك».

لوت إيميليا فمها قليلاً: «وأين أميري؟».

ـ يجب أن تصبري قليلاً، لكنه سيأتي في يوم ما، لا تشكّي في هذا أبداً.

وجلس جوليو برشاقة خلف المقود، وأدار المحرك وأكمل: «إذن، اليوم لنا آفانتي! أين سنذهب برينسيبسا؟».

ـ إلى ڤيرينتز، أنتَ قلت هذا زيو جوليو.

ـ آه، أجل، لكن ربما نسيتُ الطريق، يجب أن تعطيني التعليمات، أو قد ينتهي بنا الأمر في روما، ويجب أن ترفعي صوتك، فأنا عجوز.

ضحكت إيميليا بابتهاج وجلست مستقيمة، تنظر إلى خارج النافذة، تنتظر بلهفة ظهور أول لوحة إشارة في الطريق.

في فلورنس، أوقف السيارة وسط ساحة متسعة مزينة بنسخات برونزية من أشهر تماثيل مايكل أنجلو، بما فيها تمثال «دايڤد»، وتمتمت

لوسي وهم ينزلون من السيارة: «أوه، ما هذا المكان؟».

ـ أوه، إنه ساحة مايكل أنجلو، المكان الذي يحب زيارته كل قادم إلى فيرنيز، أنظري.

وشق طريقه بين فنائي الرصيف وبائعي اللوحات بالألوان المائية، وقادها وإيميليا إلى جدار معمّد بدرابزين.

بانت لهم من فوق فلورنس مقسومة إلى شطرين بنهر آرتو البطيء الحركة، وكأنها لوحة عظيمة من العصور الوسطى، ومن ورائها، على مسافة بعيدة، تقع تلال توسكانيا.

همست لوسي: «إنها رائعة الجمال».

رد بصوت هادىء لطيف: «سي، أجمل من أي حلم».

أدارت لوسي رأسها، ورأت أنه كان يراقبها وعيناه ثابتتان على وجهها، وتعالى اللون الفريزي إلى خديها، وبسرعة حولت اهتمامها إلى المنظر مجدداً.

تابع بعد صمت: «في أي وقت أعود من السفر، فهذا دائماً أول مكان أعود إليه».

لوت عنقها تسأل باهتمام: «هل هذا هو «بونت ڤيتشيو»؟».

وحاولت إخفاء إحساسها بقربه الجسدي منها، وبذراعه التي تكاد تلمس ذراعها فوق الدرابزين الحجرية.

ـ أجل، إنه الجسر الوحيد الذي بقي فوق نهر آرتو، بعد الحرب. كان أبي يقول دائماً إن ما من أحد يعرف أبداً لماذا لم يدمّره الألمان، وهو هكذا، فالعديد من صانعي الذهب يعلقون بافطاتهم عليه دون اعتراض أحد، منذ أيام كازيمو ديميدتشي.

قالت بوجه ثابت: «سلفك».

ضحك: «واحد منهم، ربما، هل ترغبين في شراء شيء من «بوينت ڤيتشيو»، شيء يذكرك بڤيرنز؟».

ـ يجب أن ألتزم بتذكارات أرخص ثمناً.

واستقامت لوسي تنظر إلى إيميليا، التي بدأت تضجر، وتحركت بعيداً لتتفرج على أحد معارض اللوحات. وأكملت: «لكنني لن أنسى هذا المنظر ما حييت، شكراً لك جوليو على مجيئك بي إلى هنا كي أراه».

هز كتفيه: «ربما هذا يومي لأقوم بدور اللطف».

واستقام عن الجدار كذلك، ينظر إليها وعيناه الكهرمانيتان مغطاتان برموشه.

ـ مع ذلك أعرف جيداً أنني لم أكن لطيفاً من قبل في تعاملي معك لوسيا، وربما في النهاية، كنتُ مضطراً أن أكون قاسياً، كي أكون لطيفاً.

هبطت يده على كتفها، ليديرها بلهفة نحوه، وهو يطبع قبلة على خدها وأحست بصدمة التصاق جسمه بها.

ثم، وبسرعة مماثلة، وقبل أن يراهما بقية المتفرجين على المنظر ويسجلوا ما يحدث، تحررت منه لتقف تحت أشعة الشمس، ويدها مرفوعة إلى خدها، تراقبه يسير بعيداً عنها، وهي تعرف تماماً، أنها وفي يوم قريب، سوف تضطر لمراقبته يبتعد عنها إلى الأبد.

***

٨ ـ العذاب الصامت

عندما لحقت بجوليو وإيميليا إلى السيارة، كانت لوسي قد هدّأت أنفاسها المحمومة، وتمكنت من مواجهة نظرته الساخرة برباطة جأش.

قال: «الصغيرة تطلب الآيس كريم، لكن ربما نتناول الغداء قبل أي شيء آخر، موافقة!».

دون انتظار لردها المتردد، قاد السيارة إلى وسط المدينة ليركنها أخيراً في شارع جانبي هادىء.

قال آمراً: «الآن سنسير، سنأخذ طريق السواح لأجل لوسيا».

وأمسك يد إيميليا، وقاد الطريق بجدية عبر البيازا، وإيميليا تتنطط إلى جانبه.

وجدت لوسي نفسها تقطع سوقاً مزدحمة، فيها منصات بيع متلاصقة تبيع التذكارات، والبضائع الفلورنسية الجلدية الشهيرة، وأرادت أن تطيل البقاء هناك قليلاً، لكن إيميليا أمسكت يدها.

ـ لوسيا تعالي وانظري إلى «بورسيلينو».

وجدت لوسي نفسها في مواجهة تمثال برونزي لخنزير برّي، أنفه الأفطس ناعم ولامع بشكل لا يصدق، على عكس بقية جسمه.

قال جوليو همساً في أذنها، وأنفاسه الدافئة ترفرف على خدها: «تقول الأسطورة إنك لو لامست الأنف كولومبينا فستعودين إلى ڤيرنيز».

رفعت يداً مترددة ومررتها فوق المعدن اللامع، تحت إلحاح إيميليا، التي طلبت بعض النقود المعدنية من خالها لترميها من فم الخنزير إلى

الحاجز المشبك في الأسفل.

وهي تقول مبتسمة: «وهذا للحظ السعيد أيضاً».

أضاف جوليو: «الحظ السعيد لملاجىء الأطفال التي تستفيد من المال».

صاحت الطفلة: «هل لي بالمزيد من المال؟».

داعب جوليو شعرها: «فيما بعد يا صغيرة، بعد أن نأكل، سأعيدك إلى هنا».

انتهى بهما المقام إلى مطعم صغير في أحد الشوارع الضيقة، يحتوي على طاولات رصيف مغطاة بظليلة خضراء قاتمة، وجاء رجل صغير الجسم وبدين، واضح أنه صاحب المطعم، لاستقبالهم وتصافح مع جوليو، ثم احتضن إيميليا بحماسة، مع وعد أنها حين تنهي طعامها سترى القطط الجديدة في الفناء الخلفي، ثم أدار نظره ليبدي الإعجاب بلوسي.

قادهم باحترام إلى أفضل طاولة، ومن ثم قدم لهم أفضل عصير مع مياه غازية، وخبز دافىء.

قال جوليو لها حين وضع طبق كروستيني على الطاولة، مع خبز محمص مدهون بپاتيه الكبد والثوم: «جيوڤاني يقدم أفضل طعام في ڤيرنيز، ولسوف نتناول الأطباق المميزة هنا».

كانت الرائحة طيبة والمذاق أطيب، كما أكدت لوسي التي أكلت كل لقمة في طبقها، وابتسم جوليو لها عبر الطاولة: «طعام الآلهة، هه؟».

نسيت لوسي أنها قررت أن تكون باردة وردت عليه بابتسامة: «لا بد أنك تأتي إلى هنا دائماً حتى يعاملوك جيداً هكذا».

هز كتفيه: «أنا أعيش وأعمل هنا على أي حال».

وصب المزيد من العصير في كأسها: «إذن، هل أنت سعيدة لزيارة ڤيرنيز؟».

هزت لوسي رأسها: «طبعاً، لقد خططتُ قبل الآن للمجيء إلى هنا، لكن الأحداث سبقتني».

فقال بنعومة حريرية: «مثلي تماماً، لكن زيارة واحدة لا تكفي، يجب أن تشاهدي المزيد من مدينتي قبل مغادرتك».

رأى الابتسامة على شفتها دون قصد منها فارتفع حاجباه: «لماذا تبتسمين؟».

هزت كتفيها: «أنا أعيش وأعمل في لندن، لكنني لا أشير إليها على أنها مدينتي».

ـ هنا في توسكانا، إحساسنا بالانتماء يجري عميقاً في دمنا، لقرون عديدة، حارب الرجال وماتوا لأجل هذه المدن بالذات.

وشرب قليلاً من عصيره: «ونحن الفلورنسيين نحب الكسب، وأحياناً بأي ثمن».

نظرت إلى قوته العفوية، وخطوط فمه الصارمة، وصدقت ما يقول. وسارعت إلى الكلام: «الشاعر دانتي كان من فلورنس، ألم يكن؟».

ـ سي، وكذلك كانت بياتريس، الفتاة التي أحبها طوال حياته، لكن دانتي لم يكتف بالشعر، بل شغل نفسه بالسياسة أيضاً، وطرد من المدينة إلى «راڤينا». وهناك قصة في عائلتنا تقول أنه التجأ إلى منزلنا في طريقه إلى منفاه، ولهذا يحمل المنزل الحالي اسمه حتى اليوم.

وسألت لوسي باهتمام: «وهل عاد إلى فلورنس؟».

تجهم وجه جوليو فجأة: «لا، لقد كان له الكثير من الأعداء، لكن أهل المدينة اليوم، وفي ذكرى مماته السنوي، يرسلون الزيت لإضاءة المصابيح على قبره».

قالت لوسي بصوت منخفض: «أنا مسرورة لهذا، إنها قصة لطيفة، حتى ولو أنها تعني أنه لم يشاهد حبيبته بياتريس أبداً».

قال جوليو بحدة: «تقول الأسطورة إنه شاهدها لمرة واحدة وهي فتاة صغيرة متجهة إلى مدرستها، لكنها أصبحت نموذجه المثالي، برغم أن كل منهما تزوج بآخر».

قالت إيميليا: «هذا أمر سخيف، الناس الذين يحبون بعضهم يجب

أن يتزوجوا، ألا تظن هذا زيو جوليو؟».

عبث جوليو بشعرها: «ليس الأمر ممكناً دائماً كارا، أضيفي إلى هذا أن دانتي، بالرغم من حبه لبياتريس، فهي قد لا تكون تبادله ذلك الحب. لذا، ربما من الأفضل له الاحتفاظ بحبها في قلبه فقط، ويتزوج من غيرها لأسباب سياسية، ومنطقية».

أعلنت إيميليا: «لقد أنهيت طعامي، هل أذهب الآن لأرى القطط؟».

ـ *أجل، وسألحق بك بعد انتهاء قهوتي.*

وأرسل ابتسامة خفيفة نحو لوسي ليمنع احتجاجها.

ـ استرخي كولومبينا، لن يصيبها ضرر، وتمتعي ببعض الهدوء، فليس من الجيد هروب الإنسان دائماً؟

حاولت الرد بخفة: «ليس الأمر هكذا، بل هو إنقاذ مؤقت».

اكتأب الوجه الأسمر: «وهو إنقاذ مؤقت، نستحقه كلنا، حتى أنجيلا لديها الفرصة لتكون وحدها مع «الأمانتي»».

الصمت المفاجيء بينهما بدا وكأنه تحول إلى ألم. ووجدت لوسي نفسها تتساءل عما إذا كان قد قص عليها قصة دانتي وحبه البائس لبياتريس عمداً، كإنذار كيف يمكن للحب أن يضرب ضربته بسرعة، قضاءاً وقدراً.

وربما يرغب جوليو تذكيرها كذلك، أن لا أمل لها بشيء ما عدا ألم القلب والشوق الذي لا ينتهي، وهذا أمل عقيم بحد ذاته. لأن مستقبل جوليو مخطط له «لأسباب سياسية ومنطقية».

لكنني أعرف هذا، والوقت متأخر كثيراً لأي تحذير.

قبل أن تستطيع منع نفسها قالت بخشونة: «ألا.. يهمك هذا؟ أعني علاقة أنجيلا؟».

رد بصوت متجهم: «بلى، فأنا أجد أنني هذه المرة مهتم جداً».

ابتلعت ريقها: «أنت، تستطيع دائماً، وضع حد لما يجري. يمكنك الطلب من أنجيلا أن تتزوجك، وهذا يضع نهاية لعلاقتها مع فيليب، وهي إنما تستغله لتجعلك تغار، لأنها كما يبدو جشعة طموحة وهو لا يمكنه أن

يوفر لها ما تستطيعه أنت».

وكانت صرخته من القلب حين قال: «أستطيع هذا، لكنه لن يحل شيئاً، وما الفائدة؟».

ومع إحساسها بالضيق في حنجرتها قالت: «حين تحب شخصاً..».

قاطعها بصوت ناعم ساخر: «آه، الحب! هذه الكلمة الصغيرة الخطيرة التي يمكن أن تغطي الملايين من الخطايا».

ثم مال إلى الأمام، وعيناه الكهرمانيتان مشرقتان ومركزتان: «إلى أي مدى يجب على المرء المضي بعيداً لأجل الحب، أتساءل لوسيا؟».

نظرت إلى الطاولة، وردت بهدوء: «لأجل الحب الحقيقي، حتى آخر العالم، حتى الأبدية».

ـ لكن هل هذا مناسب للحب، وللبقاء على حب شخص وهو يُظهر لك أنه لا يبادلك ذلك الحب؟ وبعد أن يجرحك متعمداً، وبعمق..

كان في صوته غضب، ونوع من العذاب، وسمعت لوسي هذا باندهاش. قالت تقترح بصعوبة: «ربما لا نستطيع السيطرة على مشاعرنا بسهولة، وربما الحب الحقيقي هو ذلك النوع الذي يدوم، ولا يسمح بأيه فرصة خيار».

قال متجهماً: «أتمنى أن تكوني مخطئة».

ودفع كرسيه إلى الوراء، ووقف: «والآن، من الأفضل أخذ إيميليا لإطعام تمثال «إل پورسيلينو» مجدداً».

سرها تغيير الموضوع: «أوليس هذا وقت غداؤك العادي؟».

نظر إلى ساعته: «لا، عادة في مثل هذا الوقت أعود إلى شقتي من أجل استراحة، في البرودة والظل، هل تروقك الفكرة؟».

أحست بجفاف فمها: «أعتقد أن هذا أمر عادي، في هذا النوع من الحر..».

تلاعبت ابتسامة خفيفة حول شفتيه: «عادي تماماً، وممتع جداً، هل تأتين معي لوسيا ميا؟ هل تنامين على فراشي، بين ذراعي، في وقت تكون

المصاريع الخشبية مقفلة، لنراقب الشمس وهي ترسم نماذجها على السقف؟».

أحست بالضياع وهي تسمع دعوته، وأخذت تدور في دوامة مشاعر معقدة، وفي صراع مؤلم مع الشوق، الذي تملكها. في تلك اللحظة، عرفت أنها ستذهب معه إلى أي مكان.

ثم قاطع صوت إيميليا المهتاج بنفاد صبر، ليبدد سحر اللحظة، ويشدها لتعود عن شفير الهاوية.

ـ زيو جوليو، إل بورسيلينو ينتظرنا.

تنهد جوليو تنهيدة قصيرة، ثم استدار يبتسم للطفلة: «طبعاً، هيا بنا».

راقبته لوسي يسير مبتعداً، وهي ممتنة لعدم طلب الرد منها على دعوته، وراحت تنظر حولها إلى الطاولات الأخرى، تراقب، بأسى، الناس يمرون بها، وقع أقدامهم بطيئة في حر منتصف النهار الثقيل.

لمح جيوفاني، الدائم اليقظة، تململها، فتقدم نحوها: «المزيد من القهوة بيلا سنيوريتا؟».

ابتسمت وشكرته، وقالت له متلعثمة كم كانت الوجبة جيدة، وراقبت ردة فعله المبتهجة.

ـ قولي هذا للكونت حين يأتي بك للعشاء هنا، إنني سأطهو وجبة مميزة، وسيكون هناك شموع وموسيقى، هو رومانسي جداً.

وفكرت لوسي وهي تشرب القهوة الساخنة اللذيذة أن هذا الغداء كان محفوفاً بالمخاطر بما يكفي.

ـ تشاو، حبيبتي، هل هربت، أم أنك خرجت في إطلاق سراح مؤقت؟

الكلمات المتشدقة أدارت رأسها وشعرت بتوتر. كان هال، الذي التقت به في الحفلة عندما كانت مع صديقاتها، ببنطلون قصير وقميص مربوط على وسطه، يقف إلى جانبها، وابتسامته متكلفة وهو يسألها:

- أتمانعين أن أنضم إليك؟

- في الواقع أجل.

ومدت يدها إلى حقيبتها: «كنتُ على وشك الرحيل».

تذمر قائلاً: «تقولين لي هذا دائماً، أنتِ لست ودية، أليس كذلك؟».

هزت كتفيها: «ربما لا تعجبني نوعية صداقتك».

ضحك: «تحبين الصداقة على الطريقة الإيطالية؟».

وجلس وراح يخبرها عن صديقتها: «تورمت عينا نينا غيرة لأن الكونت اختارك من بينهن، وأملت حين ظهر في لوشيون، أنه ربما غيّر فكره، أو شريكته، لكن كل ما كان يريده، هو طرح الكثير من الأسئلة عنك وعن خلفيتك العائلية، بينما كانت نينا تقضم أظافرها غيرة».

قطبت لوسي: «لوشيون؟».

- أجل، وصل صباح الأمس بعد الفطور مباشرة، ليقوم بدوره العظيم، ولقد تأثر والدا بن به كثيراً.

وضحك: «أرجو أن يكون رضي بالشهادات التي وفرتها له نينا عنك، أما أنا فما كنت لأرضى».

وتصورت لوسي هذا، لا عجب إذن أنه ظنها فريسة سهلة.

بللت شفتيها بطرف لسانها وسألت بسرعة: «كيف حال الآخرين؟».

- الشجار الداخلي كان رائعاً، ولن تعرفي أبداً مَن مع مَن، أو إلى متى، ولقد بقيتُ بعيداً عن كل شيء.

ثم مد يده يمررها على ذراعها: «بعد أن خسرتُ التي كنت أريدها».

بدا لها أن لمسته تركت أثراً مزعجاً على بشرتها، ودفعت كرسيها بعيداً إلى مسافة آمنة، مع ظهور جيوفاني مجدداً.

- هل تريد طلب شيء سنيور؟

- لا، بل أتبادل الحديث مع السنيوريتا.

ووقف جيوفاني حيث هو، وجهه المبتسم عادة أصبح متجهماً فجأة.

- هذا مطعمي سنيور، والناس يأتون إلى هنا ليطلبوا الطعام، لا لشيء

سواه.

قال هال ساخراً: «ما يصطاده الصقر، يحتفظ به. حسن جداً، يمكنني فهم التلميح».

وأطال النظر مبتسماً في وجه لوسي: «إذا لم تسر الأمور كما يجب مع الكونت، والشائعات تقول إنه يحب النساء ويتركهن بعد وقت قصير، تعرفين أين يمكن أن تجديني».

انحنى نحوها، وأدركت لوسي ما ينويه، فأدارت رأسها بسرعة، بحيث وقعت قبلته المهينة قرب أذنها.

رأت من فوقه جوليو يقف على بعد ياردات منهما، يعلوه قناع برونزي متكبر.

- تشاو بابيي.

ولوّح هال مودعاً بانتصار زائف.

علّق جوليو ببرود حين انضم إليها: «صديقك من الڤيلا».

كانت لوسي لا تزال ترتجف غضباً: «كلاكما تتشاركان وجهة نظر غريبة عن الصداقة».

سألها بسرعة وخشونة، بحيث أنها أحست كمن يتلقى ضربة: «هل هذا كل ما نتشارك به؟».

أحست بالدم يتصاعد بسرعة إلى خديها، وقالت بحدة: «وإلى ماذا تلمح؟ لم أكن مدركة لوجود شيء مشترك بينكما».

رمى اللفافة التي يحملها على الطاولة: «إذن، لديك ذاكرة ضعيفة ميابيلا».

وأشار بنفاد صبر يطلب الفاتورة من جيوڤاني.

نظرت لوسي إليه بدهشة: «وأنت كذلك على ما يظهر، لا يمكنك التصور ولو للحظة قصيرة، أنني أردتُ هذا».

- لست بحاجة أن أتصور، لأنني أعرف ما رأيت. بالنسبة لامرأة تدعي أنها واقعة في حب عميق ومؤلم لوسيا، فأنت توزعين القبلات بسهولة

مذهلة.

للحظة نظرت إليه بذهول، وقد أخرسها الغضب، كيف يجرؤ على إثارة مثل هذه الأمور، في وقت هو بذاته حاول وبكل سخرية غوايتها؟ وفي وقت تقيم المرأة التي ينوي الزواج منها، علاقة آثمة تحت سقف بيته؟

واتجهت برعونة إلى الهجوم: «فكّر بما شئت سنيور، صدّق ما قيل لك في لوشيون، أعتقد أنك ذهبت إلى هناك لتحقق في أمري».

ضاقت عيناه: «بين أشياء أخرى».

ـ وقررتَ أن لدي ما يكفي من الأخلاق لأعتني بالولدين؟ وأنت بالطبع، الحكم المناسب في مثل هذه الأمور.

وتطلع بعيداً عنها، لترى جانب وجهه وكأنه منحوت بالبرونز، متكبر وقاسٍ كوجه الصقر.

ـ أنا رأس عائلتي لوسيا، ولسوف أذهب إلى أي مدى ضروري لأحمي مصلحتها وسمعتها.

أطلقت ضحكة قصيرة مزدرية: «أنتَ تدهشني سنيور».

ـ وأنتِ كارا، لم تتوقفي لحظة عن إذهالي.

خفت حدة صوته وهو يستدير ليواجهها، وعيناه الكهرمانيتان تتفحصانها كلهيب محترق: «أعتقد أنك قررتِ الآن أن لوشيون هي المكان المثالي لتجدي فيه السلوى لقلبك المجروح؟».

القسوة الحريرية في كلماته، كانت كسكين يحز في قلبها.

قالت: «ولمَ لا؟ فعلى أي حال سأضطر إلى الذهاب إلى مكان ما بعد وصول دورويثا، هل لديك فكرة متى يكون هذا؟».

قال ببرود: «لا، لكن صدقيني سنيوريتا، ستكونين أول من يعرف».

عضت شفتها: «وبما أننا في الموضوع، هل نسيت إيميليا، أم هجرتها في مكان ما؟».

فأشار إلى منصة على الرصيف: «إنها هناك، تختار الزهور لأمها».

أشار إلى الرزمة على الطاولة بلفافتها السوداء والفضية: «كما اخترتُ

لك أنا، وكالأبله، هذه».

تجرجر كرسي لوسي بصوت مرتفع على الرصيف وهي تقف، وتقول بصوت خشن: «هدية الوداع كونت؟ شيء أتذكرك به؟ بدلاً من عرض الحب لبعد الظهر؟».

وهزت رأسها: «إذا كنت تتوقع مني الانحناء احتراماً، والهمس لك «غرانزي»، فستواجه خيبة الأمل، أنا لا أريد شيئاً منك، لا الآن ولا أبداً».

نصحها ببرود: «اخفضي صوتك، نحن نسترعي الانتباه».

عضت شفتها، وردت ساخرة: «لا تقل لي إنهم غير معتادين على مثل هذا سنيور، معظم الناس هنا يتبادلون الأحاديث بأعلى أصواتهم».

قال بصوت كالحرير الفولاذي: «لكن عادة ليس معي. والآن، من الأفضل المغادرة قبل أن يصاب جيوفاني بنوبة قلبية».

وصمت قليلاً: «أعتقد أنك شاهدت ما يكفي من ڤيرنيز ليوم واحد».

رمقته بحدة: «بل أكثر مما يكفي».

وتراجعت لتنضم إلى إيميليا قرب منصة الزهور.

قالت إيميليا لاهثة: «كلها جميلة، هل تظنين أن ماما ستحب هذه الزهور الصفراء، أم ربما تلك الزهرية الطويلة؟».

اقترحت لوسي: «لماذا لا تختارين باقة مختلطة؟».

دفع جوليو ثمن الزهور، التي لفت بأناقة في ورقة أطرافها مذهبة، وأصرت إيميليا على حملها إلى السيارة.

تابعت إيميليا الكلام طوال رحلة العودة إلى المنزل، بسعادة، غافلة عن الصمت المثلج الذي ساد في مكان آخر من السيارة.

حين وصلوا الڤيلا، أرادت إيميليا الإسراع إلى الداخل لتقديم الزهور لأمها، لكن جوليو كان صارماً: «ماما الآن تأخذ قسطاً من الراحة، كما يجب أن تفعلي أنت يا صغيرة، اذهبي مع لوسيا، وستضع تيريسا أزهارك في الماء، لتقديمها لأمك في وقت لاحق».

كورت إيميليا فمها، لكنها ذهبت مع لوسي. وبينما كان جوليو يصعد

السلم، انفتح وظهرت أنجيلا. كانت تبتسم وتمد ذراعيها إليه.

ـ حبيبي.

صوتها كان يقطر توبيخاً: «لماذا لم تقل لي أنك ذاهب إلى ڤيرنيز؟ كنتُ ذهبتُ معك، فأنا أرغب في شراء أشياء من فيراغامو وبونتي».

أمسك جوليو يديها وطبع قبلة عليهما: «في المرة القادمة كارا».

وأضاف شيئاً آخر بصوت منخفض، كانت لوسي، والشكر لله بعيدة عن سماعه، وقالت لنفسها: لا زال لديك عمل تقومين به فقومي به.

ما أن أصبحت في غرفة النوم المظللة في الكاسيتا، حتى تحركت لوسي بسرعة في الغرفة تلتقط الثياب المرمية هنا وهناك تطويها، ورأت أن الفتاة تقاوم النوم، وليست على استعداد للاستسلام دون مقاومة.

ـ قصي عليّ قصة.

جلست لوسي على حافة السرير: «أية قصة تريدين».

ـ سندريلا.

سألت ممازحة: «مرة أخرى؟».

ـ أجل، لأن سندريلا فيها تصبح أميرة، كما يقول زيو جوليو أنني سأصبح، هل تأملين أن يتزوجك أحد الأمراء لوسيا؟

قالت لوسي بجفاء: «معظم الأمراء في انكلترا لديهم ارتباطات أخرى ولسوف أقنع برجل طيب يحبني».

ـ زيو جوليو رجل طيب، ورأيته اليوم يعانقك. هل ستتزوجينه الآن؟

استجمعت لوسي شجاعتها المتشتتة فجأة: «الناس أحياناً يعانقون بعضهم بعضاً في مختلف المناسبات إيميليا. وليس من الضروري أن هذا يعني قضاء كل حياتهم معاً، وغالباً ما يتزوجون أشخاصاً مختلفين تماماً».

وتخيلت فجأة صورة أنجيلا، المبتسمة بانتصار ورضى، وتنحنحت: «والآن، في قديم الزمان..».

نامت إيميليا قبل وقت طويل من نهاية القصة، ونزلت لوسي بهدوء على السلم، لتجلس في زاوية الفناء تحت العريشة، وتقوم بشيء من

الرسم، ولن تسمح لنفسها بالتفكير، أو التساؤل، أو التأمل، خاصة أن لا فائدة من أي أمل.

أول شيء رأته كان الرزمة باللفافة السوداء والفضية، ملقاة وسط طاولة غرفة الجلوس، وبطاقة مدسوسة تحت شريط الربط.

فتحت لوسي البطاقة ونظرت إلى الكلمات: «اعتبري هذه، أرجوك هدية دون أي ارتباط، أو حتى مكافأة، وصدقي أنني لا أريد شيئاً في المقابل».

مدفوعة بالفضول، مزقت لوسي الورقة الملفوفة وفتحت العلبة داخلها، بيدين مرتجفتين، وأخرجت حقيبة يد، بخطوط كلاسيكية بسيطة، مصنوعة من أنعم الجلد الرائع. للحظة، وقفت بهدوء تنظر إليها بإعجاب، تلمسها، وتستمتع بقماشها الفخم، ورائحة الجلد الغالي، ثم فتحت قفل الحقيبة في الداخل لتجد بطاقة بيضاء مكتوب عليها «جوليو» ولا شيء آخر.

وشعرت بازدياد خفقات قلبها الراعد، وهي ترفع البطاقة بسرعة ونعومة إلى شفتيها، ثم عادت ودستها مجدداً في أحد جيوب البطانة الحريرية.

إنها ذكرى منه، وستبقى معها، في السراء والضراء، وإلى ما تبقى من حياتها.

***

كان بعد الظهر طويلاً جداً، بالرغم من كل تصميم لوسي على عدم التفكير، وفشلت رسوماتها المحببة في توفير التأثير المهدىء العادي لها.

أحست بارتياح حين عاد ماركو، مشاكساً وفي يده آخر صرعة في عالم السيارات الصغيرة التي تدار بالسيطرة عن بعد، وكانت إيميليا قد استيقظت لتوها، ورأت لوسي خطوط الاكتئاب على وجهها حين أخذ

ماركو يستعرض لعبته بتفاخر، واقترحت لوسي بدبلوماسية وضع السيارة بعيداً حتى يرسما بعض الرسومات.

وانشغلت لوسي تماماً إلى أن جاء وقت استدعائهما إلى الداخل لتغيير ملابسهما استعداداً للعشاء.

وهم يسيرون إلى الڤيلا، بدا أن دماغها عاجز عن التفكير، ما عدا توقعها رؤية جوليو، ومواجهته مرة أخرى، لكن أول شخص التقته في الردهة كان فيليب، وكان وجهه عاصفاً كالرعد.

قال بقساوة: «أريد معرفة ماذا يجري هنا بحق الجحيم، لقد عرفت لتوي من تلك الخالة أن أنجيلا ستخرج مع الكونت هذا المساء، وهي لم تقل لي كلمة واحدة حول هذا».

وجهت لوسي الولدين للركض أمامها: «أنا آسفة، لكنهما حران».

وعضت شفتها: «على أي حال، أنت وأنجيلا لستما مخطوبين، أليس كذلك؟».

اعترف غاضباً: «لا، لكن بيننا اتفاق ضمني، أو هكذا ظننت، على أية حال، لم أعد متأكداً الآن من أي شيء، لقد أصبحت أنجيلا فتاة مختلفة كلياً منذ وصولنا إلى إيطاليا».

فحدثت لوسي نفسها: «أشك في هذا، وأظنها كانت دائماً هكذا، إلا أنها الآن لا تزعج نفسها بالادعاء».

تابع فيليب كلامه بغضب: «لا أعرف ماذا أفعل نحو الأفضل، إنني أفكر جيداً بالرحيل، وقطع علاقاتي بها والعودة إلى انكلترا، فما رأيك؟».

نظرت لوسي إليه نظرة غير مصدقة أبداً: «أعتقد أن القرار عائد لك فيليب، وأنا بالكاد أكون أفضل شخص ينصحك».

قال بنفاد صبر: «هل يعيدها إلى صوابها لو تخليت عنها؟».

فأكدت لنفسها: «بكل تأكيد أعادني هذا إلى وعيي لكن ليس بالطريقة التي تعنيها».

ثم قالت بهدوء: «أظن أنك حين تحب شخصاً، يجب أن تقف

متصلباً وتقاتل من أجله، مهما تسبب لك هذا من ألم، وأنا لا أؤمن بالاستسلام، أو الهرب».

ـ براڤو لوسيا.

قاطعها صوت جوليو المألوف، المشوب بالسخرية، وهو يهبط السلم نحوهما: «أتساءل عما إذا كانت شجاعتك ستنال المكافأة التي تستحقينها؟».

كلمة شكره الصغيرة الحذرة، التي قررت قولها له انمحت فوراً من رأسها. وللحظة عابرة، سمحت لنفسها بنظرة فاحصة، لتتمتع بأناقة بذلته الصيفية الخفيفة، المستقرة بسهولة على كتفيه العريضتين.

وكأنه يرتدي ثيابه للقتل! وهي ممتنة أنها ليست الضحية.

أحست باكتئاب وألم: «لن أعتقد هذا للحظة، كونت فالكون، والآن يجب أن أذهب لأجد الولدين».

كانت قد وصلت لتوها إلى السالاتو حين سمعت صوت إيميليا يرتفع في نوبة غضب تصل إلى الصراخ.

فتحت لوسي الباب في الوقت المناسب لترى إيميليا والدموع تنحدر على وجهها ترمي بنفسها على الكونتيسة تضربها بقبضتيها.

ـ أوه، يا إلهي.

تقدمت إلى الأمام، لكن جوليو وصل إلى هناك قبلها، وأمسك بالطفلة المصابة بالهستيريا وجذبها بعيداً.

قال بصوت أجش: «ما معنى هذا؟ ماذا حدث؟».

صاحت إيميليا بصوت مثخن بالبكاء: «أزهاري، الزهور التي جئت بها لأمي، لقد رمتها، أكرهها، أكرهها..».

تدخلت لوسي بسرعة: «هس، حبيبتي..».

وركعت على ركبتيها تلف ذراعيها حول الصغيرة الباكية، ونظرت إلى الكونتيسة نظرة رصينة: «أنا واثقة من وجود غلطة ما، جدتك لن تتعمد رمي هديتك لأمك».

ارتسم على فم كلوديا فالكون المدهون بالأحمر تكشيرة، وهي تهز كتفيها: «لقد وجدت تلك الكومة الذابلة من الزهور على تلك الطاولة، وواضح أنها كانت تموت، فتخلصت منها».

رفعت إيميليا وجهها المبلل بالدموع عن كتف لوسي: «لم تكن تموت، لم تكن.. أنتِ كاذبة، أنتِ شريرة، أنتِ ساحرة لعينة».

أسكتها صوت خالها: «باستا، يكفي».

واستدار إلى الكونتيسة: «أنت فعلت هذا؟ لماذا؟».

تنهدت بسأم، وبلهجة قاسية قالت: «لا أطيق تواجدي في غرفة مع زهور ذابلة، هذه نقطة ضعفي، وبالتأكيد هذه مسألة تافهة بالمقارنة مع التهجم المجنون الذي تعرضتُ له، فكما رأيت بنفسك كارو جوليو، إيميليا لا تستطيع السيطرة على نفسها وهي غير متوازنة، وربما ستصدق فياميتا الآن حين أقول لها إن الطفلة تحتاج إلى إشراف متشدد».

خطت خطوة إلى الأمام، وأحست لوسي أن إيميليا انكمشت.

وتابعت كلوديا: «هذه الحياة البدوية، في اللحاق بأبويهما من بلد إلى آخر، لا توفر الاستقرار الذي يحتاجه الولدين، كم مرة قلت هذا؟ وبعد هذه الحادثة يجب أن تقبل فياميتا، وتوافق معي».

قطب جوليو حاجبيه، وقد استقرت عيناه بثبات على إيميليا: «شيء ما يجب أن يُفعل..».

تفجرت الكلمات من لوسي وهي تشعر بالصغيرة تجفل في حضنها، ورفعت نظرها إلى جوليو في رجاء حار.

ـ لا يمكن أن تعني هذا. صحيح أن تصرف إيميليا خاطىء، لكنها كانت مجروحة ومتكدرة، ومستفزة، فمعاملة الزهور التي اشترتها لأمها وكأنها قذارة غير مرغوب فيها، كان أمراً قاسياً، دون رحمة.

ساد صمت مشدود، ثم قالت الكونتيسة: «إذن، لقد أصبحت السنيوريتا وينتزز الآن، مطلقة الحكم على التصرف في هذا البيت».

وكان لضحكتها صرير يؤذي الآذان.

ـ لا داعي لسؤال أنفسنا من كان يشجع إيميليا على التصرف كولد من الشارع.

تجهم وجه جوليو، وقال بهدوء: «أعيدي الولدين إلى الكاسيتا لوسيا، سأطلب من تيريسا تقديم وجبتكم هناك».

وقفت لوسي على قدميها، وقالت: «سنيور جوليو، أرجوك، هل لي التحدث معك لوحدنا؟».

بدا وكأنه ينظر من خلالها: «أنا آسف إذ لا وقت لدي الآن سنيوريتا، سنتكلم غداً».

ـ إذن أريد كلمة خاصة مع السنيورا رينالدي.

رد بنفاد صبر خفيف، وكأن تفكيره في مكان آخر: «فياميتا تعاني من صداع أليم، وستتناول العشاء في غرفتها، ولا ترغب أن يزعجها أحد. والآن، افعلي ما طلبته منك لوسيا، بيرڤافور».

وكأنما بإشارة ما، ظهرت أنجيلا بالباب: «كارو، أنا أنتظر، نحن نضيّع أمسية جميلة سدىً».

كان شعرها يلمع كحرير أسود، والفستان الزهري الجريء يبرز لونها الأسمر بكل فتنة.

تصورتها لوسي، مع شيء من الجرأة، صلعاء مع عدة أسنان أمامية مفقودة، ثم قادت الولدين إلى خارج الغرفة وأحدهما لا زال ينتحب بينما الآخر يحتج بقوة.

لكن ليس قبل أن تسمع جوليو يقول: «سامحيني ميا كارا، أعدك أن الساعات المقبلة ستكون مخصصة لك».

وفكرت لوسي ساخرة وهي تسير مع الولدين إلى الكاسيتا بصمت: هذا دون ذكر بقية العمر. لكن، إذا كان مصمماً على ربط نفسه بمثل هذه العاهرة، فلا شيء يقال.

سأل ماركو إيميليا: «لماذا تبكين؟».

أنكرت إيميليا وهي ترفرف عينيها بقوة: «أنا لا أبكي».

قال متجهماً: «زيو جوليو لن يأخذنا الآن في نزهة، وأنا كنت طيباً، لولا إيميليا».

تنهدت لوسي، وقالت بحزم: «هذا قول غير لطيف وغير عادل، كيف ستشعر لو أن جدتك رمت لكَ هدية اشتريتها؟».

ـ لن تفعل هذا.

إنه واثق تماماً من مركزه كالطفل المفضل والمدلل لدى الجدة عكس أخته المسكينة.

تمكنت لوسي من إقناع إيميليا بأكل بعض الطعام اللذيذ الذي جاءت به تيريسا، ثم ألهت الولدين بالألعاب المصورة، إلى أن حان وقت النوم. كانت تتوقع المشاكل مع إيميليا، لكن الفتاة الصغيرة نامت حين لامس رأسها الوسادة.

أحست لوسي بالتململ والتوتر، وغسلت أدوات العشاء وكدستها فوق الصينية، استعداداً لإعادتها إلى الڤيلا، ثم رتبت رسوماتها وألوانها والأقلام وأوراق الرسم.

حاولت القراءة، لكن القصة فشلت باسترعاء اهتمامها.

كآخر ملاذ، ذهبت إلى الفراش. لكن محاولات النوم كانت عقيمة، ووجدت نفسها تتقلب وتتلوى على وسادتها، دماغها مستيقظ ومتنبه جداً، ومخيلتها مليئة بصور لجوليو وأنجيلا، يتعشيان معاً تحت ضوء القمر، ويده ثابتة على يدها عبر الطاولة، وأصابعهما متشابكة..

قالت لوسي بغضب: «أوه إلى الجحيم جميعهم وبكل شيء».

وجلست تدفع عنها الملاءة.

ـ منتصف الليل أم لا، سوف أغسل شعري.

وهي تقف تحت المياه المتدفقة، تسمح لأصابعها بتدليك التوتر في جلدة رأسها، أحست لوسي بالهدوء والانتعاش.

ثم ارتدت ثوب نوم قطنياً أبيض وأطلت على الولدين لتتأكد أنهما نائمين، ثم نزلت بهدوء إلى الطابق الأسفل بقدمين حافيتين، وضعت

الماء في الغلاية لصنع القهوة، ثم فتحت الباب لتتمشى إلى الخارج، وارتجفت قليلاً لبرودة الحصى تحت قدميها.

بعد حرّ النهار، كان هواء الليل ساكناً وثقيلاً بشكل غريب. وهي تنظر إلى السماء، رأت القمر، ضبابياً وكأنه غير حقيقي يلفه قناع من البخار.

وأزالت المنشفة عن رأسها وبدأت تدعك شعرها بقوة.

وتوقفت، وهي تتصلب فجأة، فكل غريزة منها كانت تنذرها أنها ليست وحدها، وأن أحد الظلال في زاوية الفناء كان حقيقياً، فهناك شبح رجل، يتقدم نحوها.

شعرت باليأس، وسألت نفسها عما تفعله في الخارج دون دفاع، وفتحت فمها لتصرخ، ووجدت أن الصوت لا يخرج منها.

من فوق صوت ضربات قلبها التي تضج في أذنيها، وصلها صوته بهدوء ودون خطأ: «لوسيا».

ـ جوليو، أوه، يا إلهي!

وهي تكاد تحس بالوهن، عادت تجلس على المقعد الحجري وقبضتها مضغوطة على شفتيها: «هذا أنت».

جلس على المقعد الحجري إلى جانبها، يحافظ على مسافة حذرة بينهما: «يجب أن أعتذر، يبدو أنني أخيفك دائماً».

وتغضبني كذلك، وتربكني، وتملأ قلبي بالبهجة بحيث لا أعود أعرف ما إذا كنت أريد أن أضحك أم أبكي، كما هي الحال الآن.

وبصوت مرتفع قالت برزانة: «أليس الوقت متأخراً قليلاً؟».

ـ لم يكن في نيتي إزعاجك.

وسمعت رنة غضب خفية في صوته، وأحست أنها لم تكن موجهة إليها، بل إلى نفسه.

ـ لم يخطر ببالي أنك لا زلت مستيقظة في مثل هذه الساعة، أنا لم أستطع النوم، فخرجت لأتمشى، وأريح رأسي.

مررت لوسي أصابعها في شعرها المبلل المتشابك ترجعه إلى وراء

كتفيها: «بالنسبة لي فغسيل الشعر أراحني قليلاً».

وتنبهت، بعد أن سمعته يتنفس بسرعة وخشونة، ويدير رأسه بسرعة عنها، أن حركتها أظهرت دون شك ثنايا جسمها.

قالت بسرعة: «أرجو أن تكون أمضيت أمسية لطيفة».

لهجته الحريرية لم تفصح عن شيء: «كانت كل ما كنتُ آمله منها، لكنني لم آتِ إلى هنا لأبحث في حياتي الاجتماعية».

ابتلعت لوسي ريقها: «لا، قلتَ إنك ستكلمني غداً، ويعني الآن كما أعتقد».

ـ لكن هذه ليست المقابلة التي كنتُ أفكر فيها.

والتقى بعينيها، بابتسامة خفيفة تتلاعب حول فمه، تجعلها تتمنى أكثر من أي مرة أخرى لو أنها ارتدت روباً فوق قميص النوم الشفاف.

ـ لكننا هنا على أية حال، ومن الأفضل أن نتحدث وننهي الأمر.

أخذت نفساً سريعاً وهي تقاوم لتحتفظ برباطة جأشها، وأكملت: «إذا أردتني أن أعتذر للكونتيسة سنيور، فلن أستطيع، وأعتقد أن معاملتها لإيميليا عار، وسأبقى على رأيي هذا».

ـ لحسن الحظ، لن يكون هذا من شأنك، قريباً.

عضت شفتها: «لا، لكن لا يمكنك تصديق أنه من الخير لإيميليا إرسالها إلى مدرسة شنيعة؟».

ـ مهما كان ظني، فالقرار النهائي هو لفيامينا وسيرجيو.

ردت بصوت حازم: «وأنت بالطبع لا تأثير لك عليهما».

دفع جوليو بالشعر عن جبهته بقلق: «ليس بالقدر الذي لكلوديا على فيامينا، وإيميليا تساهم في القرار من خلال صدامها المستمر مع جدتها، مهما كان سبب الاستفزاز».

وفتحت لوسي فمها بسخط، فأكمل: «إذا كنتِ حقاً تريدين مساعدة الطفلة، فأبعديها عن كلوديا، واعملي على عدم حصول المزيد من المواجهات، بين أي منكم. زوجة أبي عدو حقود».

ـ أعتقد أنني تمكنت من معرفة هذا بنفسي، كما أن دفاعي عن إيميليا كان أسوأ شيء فعلته.

ـ دون شك.

وتنهد بحدة: «حين سألتك الاعتناء بالولدين، لم يكن لدي فكرة أن يكون هناك الكثير من الصعاب، مثل هذه التعقيدات الإضافية».

قالت بهدوء: «وإلا لكنتَ فكرت مرتين بالأمر».

ـ أجل.

وبدا أنه انقاد للاعتراف.

ـ لكن، في ذلك الوقت لوسيا، بدا لي أنه السبيل الممكن الوحيد، وكيف لي بمعرفة أن كل شيء سيسير خاطئاً بشكل رهيب.

قالت مترددة: «يجب أن لا تلوم نفسك، حقاً. فعلى أية حال كل شيء يسير نحو الأفضل..».

أخذ نفساً عميقاً: «وهل تصدقين هذا فعلاً؟ بالرغم من كل شيء؟».

ـ أنا مضطرة أن أصدق.

ووقفت: «ليس لدي خيار آخر».

واستدارت بتصميم نحو الباب: «عمت مساء سنيور».

ـ انتظري.

وأوقفها صوته: «أريد إقناع نفسي أنك ستكونين سعيدة».

في يوم من الأيام، وبعد تمكني من إبعادك عن قلبي، ومحوك من ذاكرتي، سوف أتمكن من الحصول على الرضى، لكن ليس أكثر من هذا أبداً، لأنني لن أكون سعيدة أبداً من دونك، لكن على الأقل، كان لي تلك اللحظات السعيدة والوحيدة، والعديد من الناس لا يمكن لهم مواساة أنفسهم بهذا.

وابتسمت له، وهي ترفع ذقنها: «سأكون بخير، والآن يجب حقاً أن تذهب، فالوقت متأخر كثيراً..».

ـ أجل، متأخر كثيراً، ولكلينا.

تراجعت خطوة إلى الوراء، إلى الغرفة المضاءة. ولحق بها، وهي تدرك أنه سيفعل منذ البداية.

أغلق الباب خلفه واستند إليه ويداه مفتوحتان على الخشب، وكأنه يحاول التمسك بآخر ذرة تعقل، ولا يجرؤ على تركها.

والتقت عيناه بعينيها، وأسرهما.

للحظة طويلة، ردت عليه نظرته، تاركة للعذاب في نظرته الكهرمانية، والشوق الصارم في صوته، أن يعمياها ويصما أذنيها.

وجمد تماماً وهو ينظر إليها، وقد بان عليه التشنج والتوتر.

ثم رأته يهز رأسه، بحركة بطيئة مترددة وكأنه يتألم.

قال: «لا يمكنني لمسك! لا أجرؤ على هذا، هذا ليس ممكناً، ليس الآن، ولا أبداً».

صمت قليلاً: «كل ما أعدك به، أنني لن أنسى هذه اللحظة».

استدار وخرج مبتعداً عنها.

لفترة بقيت حيث هي، ثم راحت ترتجف وتهمس: «وأنا سأتذكر كذلك، سأتذكر صوت الباب ينغلق خلفك، نهائياً، وإلى الأبد...».

***

٩ ـ هناك دائماً طريق للعودة

استيقظت لوسي من نوم متململ على صوت تساقط ماء مستمر. للحظة، ظنت أنها قد تكون تركت الدوش جارياً في الليلة السابقة، لكن وهي تسرع من السرير لتتأكد، كان النور الرمادي الذي يخترق الغرفة عبر درف النافذة الخشبية المقفلة، يقول لها أمراً آخر.

كان هناك ستارة من المطر تجتاح التلال وتخبىء المناظر وراء ستارة مظلمة لا يمكن اختراقها.

التغيير في الطقس جعل الولدين نكدين غير متعاونين، كما اكتشفت حين دخلت عليهما ليغتسلا ويرتديا ثيابهما.

وتذمر ماركو: «لن يكون هناك نزهة اليوم».

كانوا في منتصف الطريق إلى القيلا، تحت حماية مظلة سوداء قديمة الطراز، وجدتها لوسي مسترخية كغراب في زاوية غرفة الجلوس، قبل أن تتاح لها فرصة القلق من مواجهة جوليو، في ضوء النهار البارد.

ذكرى فراقهما ليلة أمس سبّبت لها العذاب، وراحت تفكر بصمت: مساره في الحياة كان محدداً، ولسوف يتزوج أنجيلا، ولوسي تسلية غير ملائمة.

وتنهدت في داخلها، لن تضطر إلى تحمل ذل استغلالها ثم تخلصه منها، خلال عطلة عادية.

على العموم، قد لا تكون أنجيلا الزوجة المثالية لكن جوليو على الأقل لم يكن عنده أية أوهام حولها، إنها من سلالته العائلية، وعائلته

موافقة عليها، وواضح أن كليهما قادران على التخلي عن زلات الماضي وآثامه قبل الزواج، وسيكون هذا زواجاً واقعياً، ومن يستطيع القول أنه لن ينجح أفضل من علاقة زواج ولبدة غرام ملتهب مفاجىء؟

وهي تحضر نفسها لإدخال الولدين إلى غرفة الطعام، ظهرت فياميتا شاحبة الوجه بباب السالاتو، تشير إليها أنها تريد أن تكلمها على حدة.

قالت بتعاسة وهي تغلق الباب خلفهما: «سمعت أنه كان هناك مشكلة مع إيميليا».

ردت لوسي بقسوة: «لأيميليا مشكلة، قطعاً، لقد جرى تدمير الهدية التي اشترتها لك في ڤيرينزي، ولذا تكدرت».

ـ وأمي كانت، أوه، غاضبة جداً.

وتنهدت: «تقول إن إيميليا خرجت عن السيطرة».

عضت لوسي شفتها: «أنا واثقة أن هذه مبالغة».

تحولت لهجة فياميتا إلى الغضب: «حسن جداً، لم أعد أعرف مَن أصدق، أحياناً أعتقد أن ماما على حق، وأن إيميليا تحتاج فعلاً إلى مدرسة صارمة».

وتنهدت مرة أخرى: «لو كان سيرجيو هنا، كان سيعرف ماذا سيفعل».

قالت لوسي: «إذن، لماذا لا تؤجلين أي قرار إلى حين عودته؟ فأنا واثقة أن الكونتيسة لن تعترض على هذا».

وبدت فياميتا غير مقتنعة تماماً، فتابعت لوسي: «وفي هذه الأثناء، سأحاول إبعاد إيميليا عن والدتك، إنها وماركو يحبان اللعب مع أولاد تيريبيا في المعصرة، وسنمضي وقتاً أطول هناك».

ابتسمت فياميتا ابتسامة ضعيفة: «كارا لوسيا، ماذا سأفعل من دونك؟ خاصة الآن وقد عاد جوليو إلى ڤيرينزي».

كانت لوسي متجهة إلى الباب، لكن هذا أوقفها مسمرة: «رحل؟ لم أكن أعرف..».

أكدت لها فياميتا، متنهدة: «في وقت باكر جداً هذا الصباح».

سيطرت لوسي على نفسها بحزم، وقالت: «لكن بالتأكيد سيعود في المساء؟».

هزت فياميتا رأسها: «ليس من عادته قضاء الوقت هنا في هذا الموسم. لقد جاء بسببي فقط، بسبب الأزمة، والآن لن يعود على الأرجح حتى شهر أيلول، موعد قطاف العنب».

ابتلعت لوسي ريقها: «هكذا، إذن، ظننتُ أن وجود أنجيلا، الآنسة بروكهيرست، هنا قد يكون استثناء لهذه القاعدة».

ـ أعتقد أن أنجيلا ستنضم إليه في ڤيرينزي.

وصمتت فياميتا قليلاً: «وهذا سيتركنا مع مشكلة ضيفها، وهذا أمر محرج جداً».

وتحولت نظرتها فجأة إلى التأمل: «بدا لنا أنه مهتم بك لوسيا».

ردت لوسي بابتسامة إجبارية: «هذا غير محتمل أبداً».

وفكرت بصمت: يا إلهي، لو تعلمين.

فتحت فياميتا يديها: «لكن لماذا لا؟ إنه شاب وجذاب جداً».

قالت لوسي بلطف: «أنا لا أبحث عن الرومانس سنيورا، فأنا مربية أطفال بديلة، وهذا كل شيء».

وصمتت قليلاً: «هل هناك أي خبر عن دوروثيا، متى تستطيع استلام واجباتها؟».

تنهدت فياميتا مجدداً: «يبدو أنها في عطلة، ولا يمكن الاتصال بها فوراً، وهذا أمر مربك جداً خاصة وأنك لا بد ترغبين في متابعة حياتك. على أية حال لا يمكن أن تكوني مربية أطفال دائماً».

وتحولت العينان الليلكيتان إلى الخبث فجأة وأحست لوسي بالاحمرار يتسلل إلى وجهها وهي تقول: «عليّ أن أكون صبورة لوقت أطول قليلاً، والآن من الأفضل الذهاب لأرى الولدين».

ـ سيكون المنزل لكِ وحدك اليوم.

وتفحصت فياميتا دهان أظافرها: «أنا ذاهبة إلى المستشفى لإجراء بعض فحوصات، وسترافقني ماما».

ثم نظرت نحو النافذة: «أنا آسفة لهذا الطقس الرديء، ماذا ستفعلين؟».

ـ أعتقد أنني سأبقيهما متسلين.

واتجهت إلى غرفة الطعام.

كان الولدان في مقعديهما، يتجادلان بصوت مرتفع وفي الطرف الآخر من الطاولة كانت أنجيلا وفيليب مشغولين بحديث غاضب.

مع تردد لوسي بالباب، وقفت أنجيلا وتجاوزتها بفظاظة، وهي تتمتم: «وكأنني أعيش في حديقة حيوان».

ووقف فيليب بدوره، يراقبها تخرج وابتسم باتجاه لوسي:

ـ أهلاً بك إلى يوم لعين آخر في الجنة.

أحست لوسي بالإشفاق عليه وهي تسكت الولدين، وتصب لنفسها بعض اللحم والجبن، لو كان حقاً يهتم بأمر أنجيلا فلا بد أنه يشعر بالضيق، وجلست لتقول بهدوء: «أعتقد أنك ستعود إلى البلاد».

هز رأسه وجلس على كرسي إلى جانبها: «مخطئة، فهذه عطلتي وسأتمتع بها».

ونظر إلى لوسي شذراً، وبصوت منخفض قال: «أفكر بالذهاب بالسيارة إلى «لوكا» فهل تحبين المجيء معي؟».

قالت لوسي بثبات: «شكراً لك، لكن هذه الرحلة لن تروق للولدين، وإيميليا ليست مسافرة جيدة على أية حال».

ـ أنا لم أقترح اصطحابهما، أعيديهما إلى أمهما واعطِ نفسك فرصة، دعينا نواجه الأمور لوسي، كلانا هنا مثل البثرة على الأنف، وأنتِ لستِ مدينة لهؤلاء الناس بشيء.

قالت باختصار: «لقد أعطيتُ وعداً، ولن أحنث به».

هز فيليب كتفيه: «كما تشائين».

ثم دفع بكرسيه إلى الوراء ووقف، وابتسم لها.

ـ أستطيع الانتظار.

بالرغم من عذابها الداخلي، وجدت لوسي اليوم يمر بسرعة، وقد كان فراغ المنزل لها وللولدين وحدهم مكافأة إضافية.

قاموا ببعض الرسومات، ثم صنع الولدان حلوى تحت إشراف تيريسا، وتبع هذا لعبة صاخبة للغميضة.

كان ماركو ممن يسهل إيجاده دائماً، كان يكشف نفسه بضحكات حادة مثيرة، لكن إيميليا كانت أصعب مراساً، هذا ما فكرت به لوسي وهي تترك ماركو في السالوتو يلعب بسيارته الجديدة، بينما تابعت هي التفتيش عن إيميليا التي لا تزال مختبئة.

كانت قد وصلت أعلى السلم حين رأت الصغيرة قادمة نحوها على طول الرواق، تحمل بحذر شيئاً في يدها.

قالت بصوت يميل إلى النقد: «لوسيا، انظري، لقد تركت نونا خاتم زيو جوليو الجميل على طاولة الزينة، وكان يمكن للص سرقته، سأعطيه له حين يأتي ليبقيه آمناً».

نظرت لوسي إلى النار الحمراء للياقوتة نظرة ارتياع: «ماذا كنت تفعلين في غرفة جدتك؟».

قالت إيميليا ببساطة: «أختبىء، لكنك لم تجديني، لذا أنا أكسب».

تأوهت لوسي في داخلها، لماذا لم تحذرهما بأن غرفة الكونتيسة خارج حدود اللعب؟ ولامت نفسها، فبهذا وفرت إيميليا لجدتها كل الذخيرة التي تحتاج إليها لإبعادها إلى مدرسة داخلية.

قالت بلطف: «أعتقد أن أفضل شيء هو إعادة الخاتم إلى مكانه».

تمسكت إيميليا بالخاتم: «لا، سأعطيه لزيو جوليو».

ـ إنه في ڤيرنزي.

ـ إذن سأعتني به إلى أن يعود.

وبعناد أضافت: «إنه لا يريد أن تأخذه نونا على أية حال».

قالت لوسي مقطبة: «هذا ليس من شأننا، وخالك لن يعود، على الأقل في المستقبل المنظور».

ـ ماذا يعني هذا؟

مدت لوسي يدها: «يعني وقتاً طويلاً، دون جدال إيميليا، سأعيد هذا الخاتم إلى حيث وجدته، ستغضب جدتك كثيراً لو عرفت ما فعلت».

ـ لست أهتم، فأنا أكرهها.

عضت لوسي شفتها: «لكنها ستغضب كثيراً مني لسماحي لك بفعل هذا، وسوف تطردني، فهل هذا ما تريدين؟».

نظرت إليها إيميليا بارتياب: «وهل يمكن حقاً أن تفعل هذا؟».

ـ دون شك، والآن أعطني الخاتم، وسوف نتظاهر أن هذا لم يحدث أبداً.

كانت غرفة الكونتيسة غير مرتبة، والثياب خارج الخزانة، مرمية فوق السرير، ودخلت لوسي بحذر عبر الأحذية المصطفة على السجادة.

كان الخاتم يتوهج في يدها كشعلة نار حية، يغويها لدسّه في أصبعها للحظة قصيرة لترى كيف يبدو، وكيف سيكون الإحساس به في يد عروس فالكون المختارة، لكن هذا النوع من الحلم أمر خطير، ثم أودعت لوسي الخاتم بين الفوضى العارمة على طاولة الزينة من مراهم وزجاجات.

وهي تشعر بأنها متطفلة دخيلة، خرجت من الغرفة وأغلقت الباب وراءها بسرعة، فسمعت الصدى يتردد على طول الرواق.

كان الجو ساكناً وحار جداً، وجلست لوسي على صخرة كبيرة على تل يشرف على كروم العنب، تجرب لوناً مائياً على لوحتها، ثم بدأت بحذر ترسم مجموعة السقوف القرميدية الباهتة.

في الأسبوع المنصرم، أصبحت كروم العنب ملاذاً لها وللولدين، ومنذ رحيل جوليو، لم تزعج الكونتيسة نفسها بإخفاء عدوانيتها.

أنجيلا، التي كانت تقضي معظم أيامها في فلورنس ولو باستثناء الليالي، كما تعرف لوسي على الأقل، كانت تحيط نفسها بجو انتصار

متألق، يكاد يكون ملموساً.

والأسوأ من كل هذا، أن فيليب حوّل وبكل صراحة اهتمامه إلى لوسي، وأخذ يجلس في المقعد الملاصق لها على طاولة الطعام، ويخترع الأعذار ليلحق بها.

كان يرسل الابتسامات، والتمتمات السرية، ونظرات الإعجاب، ولم تردعه كما هو ظاهر التلميحات أو عدم الاكتراث المدروس، ولا حتى العدوانية المباشرة، التي جربتها لوسي معه.

ومع تشجيع فاميتا الصادق النية، كان فيليب يدعو لوسي باستمرار للخروج في نزهات معه أو إلى العشاء في الأمسيات، ولو كان أي شخص آخر، كان يمكن أن تقبل، ولو لمجرد فرصة الابتعاد عن ڤيلا دانتي لبضع ساعات. لكن، والحال على ما هي، استمرت في رفضها الحاد لمحاولاته.

منزل فرانكو وتيريسا المريح أصبح كبيت ثان لها، حاجز اللغة كان من السهل تجاوزه بمساعدة ماركو وإيميليا المتلهفين كمترجمين.

كانت تيريسا تمتلك روح التعقل والكتمان، لكن لوسي لاحظت كيف كانت عيناها المرحتان تغوصان بالضباب كلما ذكر اسم الكونتيسة، وبدا واضحاً أنها كانت تطهو الطعام في الڤيلا لأجل خاطر الكونت جوليو المحبوب، ولا أحد غيره.

وهي تسير بين صفوف العنب المتدرجة، تتحسس الأرض الوعرة تحت قدميها، كانت تشعر أنها أقرب إلى جوليو بطريقة لا يمكنها تحديدها، حتى وهي تعرف من صميم قلبها أن هذا مجرد رجاء لا طائل منه، وأنها في الواقع تحضر نفسها لمزيد من ألم القلب.

فهو بعيد جداً، في فلورنس، مجرد طيف في بذلة سوداء يعقد اجتماعات رسمية، يحتل عالماً مختلفاً عن عالمها كما هو دائماً، وسيبقى، وستكون غبية جداً لو غاصت في هذا الحلم الخطير، واعتبرت بأن عالمهما يمكن أن يتلاقيا بأي طريقة.

أحست فجأة بحركة خلفها، للحظة مثيرة للغثيان ظنت أن فيليب تمكن أخيراً من اللحاق بها إلى ملاذها، وجمدت.

ـ لوسيا.

اسمها الملفوظ بهدوء، كان آخر صوت في العالم تتوقعه، وارتجت يدها لترسل خطاً من اللون على لوحتها.

تمتم بلطف، وهو يجلس إلى جانبها، وينظر بعبوس ليفحص الضرر الذي لحق باللوحة: «لم أقصد إخافتك، لكنني لم أتوقع وجودك هنا».

فرضت لوسي السيطرة على صوتها: «أنا أجيء كل يوم تقريباً».

زاد عمق عبوسه: «لوحدك؟».

ـ في العادة أجيء بالولدين معي، لكنهما اليوم ذهبا إلى المستشفى مع فياميتا لزيارة أليسون، لذا فكرت بإكمال بعض اللوحات.

تنهد باختصار: «وأنا أفسدتُ لوحتك».

ووقف: «أنا آسف لوسيا، لديك موهبة حقيقية».

ترددت: «شكراً لك، لم أكن أعرف، أعني، لم يقل أحد إنك عائد اليوم..».

هز كتفيه: «لا أحد يعرف، كان اندفاعاً متهوراً مني، كان لدي بعض الوقت الحر، ففكرت أن آخذ الولدين في النزهة التي وعدتهما بها».

كتمت لوسي أنفاسها: «أوه، ظننتك نسيت هذا».

هز جوليو رأسه: «ستجدين، كولومبينا، أنني لا أنسى».

وأحست بوجهها قد احمّر، فقالت مسرعة: «سيخيب أملهما».

ـ أعتقد هذا، خاصة أنه من غير المحتمل إتاحة الفرصة لي مرة ثانية.

وفكرت لوسي: وهذا لا بد يعني أن خطوبته لأنجيلا أعلنت، فالفتاة الأخرى لم تخف يوماً عدم اكتراثها بالولدين.

قالت بهدوء: «يا للأسف».

هز كتفيه مرة أخرى، وقال متشدقاً: «هذه نتيجة التهور، إذن من يوجد في الڤيلا؟».

ـ لا أحد، زوجة أبيك والآنسة بروكهيرست ذهبتا للتبضع، كما أعتقد، لكنهما ستعودان للعشاء.

ـ لكنني للأسف لن أكون هنا، يجب أن أعود إلى ڤيرنيز، لمَ لم ترافقي فياميتا؟

ـ لقد طلبت مني، لكنني فكرت أنها قد تحب أن تكون لوحدها مع طفليها.

ـ وهكذا جئت لترسمي لوحدك، صورة أفسدتها أنا.

نظرت إلى اللوحة: «ربما لا، ربما أستطيع تحويل النقاط إلى طيور أو فراشات، وقد يكون هذا تحسيناً لها».

ـ أنت متسامحة جداً، ومتفائلة كذلك، لكن أتركي تحسيناتك على اللوحة إلى وقت آخر.

ووضع يده تحت ذراعها فجأة يرفعها على قدميها: «لديك الآن طعام نزهة لتأكلينه».

أحس بترددها، فتابع: «لا يمكن تركي مع سلة طعام دون أن يشاركني فيها أحد لوسيا».

يجب أن تقاوم، وتعرف هذا، يجب أن تمتنع عن هذه السعادة المحرمة، غير المتوقعة.

لكن قلبها ارتفع ليغني، وعرفت أنها لن تستطيع رفض طلبه. فقالت باستسلام: «حسن جداً».

***

كان الهواء من النافذة المفتوحة يرفع خصلات ناعمة من شعر لوسي بعيداً عن وجهها، ويبرد بشرتها الحارة.

بالكاد كانت تصدق أنها تفعل هذا. لقد افترضت أن جوليو كان ينوي إقامة طعام النزهة هذه في زاوية من أراضي الڤيلا، لكنها بدلاً من هذا

تجلس إلى جانبه، يقود السيارة بها في طريق ضيق غير مألوف.

ـ صبراً.

كان في صوته رنين الضحك، مما يدل على أنه أحس بقلقها الداخلي، ويتسلى به.

عضت لوسي شفتها: «أشعر أنه كان عليّ ترك رسالة في الڤيلا، فلو عادت فياميتا باكراً مع الولدين، ستتساءل أين أنا».

ـ وهل هي اهتمامك الوحيد؟

ـ ليس تماماً.

وتصورت لوسي ردة فعل الكونتيسة إذا اكتشفت أن مربية الأطفال المؤقتة، تمرح في الريف مع ابن زوجها.

وسمعت جوليو يتنهد بنفاد صبر: «هل تتمنين لو لم تأتي معي؟».

أحست فجأة بجفاف فمها، وشدت يديها معاً في حجرها: «لا، هذا لطف كبير منك».

ـ اللطف منك، كما هو دائماً، لوسيا.

وأحست بوجهه يشيح عنها فجأة، وكشفت نظرتها الجانبية السريعة إليه أنه عاد إلى العبوس، وفكرت: ربما يعيد النظر في هذه الرحلة برمتها.

الأفضل أن تبقى صامتة، وتتمتع بما لديها اليوم ليبقى ذكرى تخزنها وتستعيدها، خلال الأيام السوداء القادمة.

خرجت من أفكارها مجفلة مع تحويل جوليو السيارة عن الطريق وإيقافها تحت ظل شجرة.

ـ والآن سنسير.

أخذ سلة الطعام من صندوق السيارة، وأعطى لوسي بساطاً، وقاد الطريق عبر بوابة خشبية نزولاً إلى درب يتلوى عبر بساتين الزيتون القديمة التي تلمع أوراقها فضية في الشمس، في مكان ما أمامهما، رأت لوسي لمعان الماء، وسمعت هديراً خفيفاً مكتوماً.

حين برزا من بين الأشجار، توقفت، في شهقة سعادة، كانا على ضفة

نهر صغير، مياهه تتدفق من فوق سلسلة من الصخور.

ابتسم جوليو لها: «هل أعجبك؟».

ـ إنه رائع.

ونظرت بقلق حولها: «لكن هل يجب أن نكون هنا؟ تبدو لي أرضاً خاصة لشخص ما».

ـ هذا صحيح.

كان صوته مستوياً، لكن رنة التسلية كانت تتراقص فيه.

تنهدت لوسي: «طبعاً، كم أنا بلهاء! إنه جزء من أملاكك، هل تملك توسكانا كلها على فكرة؟».

ـ في أحلامي فقط، أما في الواقع، فإن أملاكي صغيرة بالمقارنة مع أملاك الآخرين.

وذكرت لوسي نفسها: وأنا أملك شقة بغرفة نوم واحدة، ونافذة صغيرة كالعلبة، بعيدة جداً عن مستوى الأملاك العائلية هذه وقيمها.

لم ترغب في التفكير بمسألة الثراء أو الظروف التاريخية التي تفصل بينهما، فشغلت نفسها بفتح البساط وإفراغ الطعام من السلة. كان فيها نخبة مميزة من الطعام.

قالت بخجل، وهي تشعر بمدى قربه منها: «لقد تحملت مشقة كبيرة».

ـ أكثر مما تعرفين.

وأخذ يقطع شرائح الدجاج ويضعها في طبقها: «أترين، أنا لم أعد فقط لرؤية الولدين، لكن لأجيء بخبر سار».

ففكرت: سيقول لي إنه سيتزوج أنجيلا قريباً جداً، وكيف سأتحمل هذا؟

بهدوء وليد اليأس، قالت: «أخبار جيدة سنيور؟ يبدو هذا مثيراً».

ـ قد يحل هذا مشاكل محددة، لكن، على أية حال قد لا توافقين.

كان الدجاج رائعاً، مع ذلك، أحست أنها تأكل النشارة.

قالت بحذر: «في الواقع هذا ليس شأني».

ـ أنت مخطئة لوسيا، بل من شأنك تماماً، مادالينا ستعود.

وراقب أثر الصدمة عليها: «لم تتوقعي هذا، كما أعتقد».

ابتلعت ريقها: «حسن جداً، لا، كيف.. كيف وجدتها؟».

ـ هي التي وجدتني، جاءت إلى المصرف في حالة رهيبة، متألمة وتبكي، وتتوسل إليّ أن أسامحها، أن أساعدها. يبدو أن مورسي اعتقل في عملية احتيال أخرى، وهو الآن في السجن، لقد عملت مادالينا لعائلتي مدة طويلة، إنها ليست مجرمة، لكنها ضعيفة بالنسبة لابن أخيها، إلاّ أنها الآن تعلمت درساً لن تنساه، وبحزن كبير.

تناولت لوسي بعض السلطة، وقالت بصوت مرتفع: «بالطبع ستعود إلى الكاسينا، وأنا بحاجة إلى الانتقال منه».

ـ أجل، هكذا أنتِ حرة الآن لوسيا، حرة بالعودة إلى بلادك أخيراً، ومتابعة حياتك، فهل يرضيك هذا؟

وضعت صحنها وشوكتها من يدها، وأحست بجفاف فمها: «طبعاً، هذه، أخبار ممتازة، ولو أنني سأفتقد لإيميليا وماركو».

وترددت: «وماذا عن الولدين؟ هل ستتمكن مادالينا من رعايتهما إضافة إلى عملها المنزلي؟».

ـ أعتقد هذا، حين لا تكون خائفة من توماسو وما قد يفعله، تكون قادرة تماماً.

وصمت ثم قال: «على أية حال لن يكون هذا لوقت طويل».

قالت لوسي بتصلب: «إذن، كل شيء مدبر بشكل جيد ومدروس».

وأرادت أن تبكي وتصرخ، وأرادت كذلك أن تضرب الأرض بقبضتيها. لكن الأخطر من هذا، وفي الوقت عينه، أرادت أن تمد يدها عبر المسافة الصغيرة الفاصلة بينهما، وتلامس يده ولو لمرة أخيرة فقط.

قال: «كل هذا للأفضل حقاً، وأنتِ لوسيا، ماذا ستفعلين؟».

هزت كتفيها: «سأحصل على الطائرة المتوفرة لأعود إلى بريطانيا».

ـ طبعاً.

وساد صمتٌ قطعه فالكون: «كما قلتُ لكِ أصلاً لوسيا، سوف أتكفل بكل مصاريفك بهذا الخصوص، لكن هل أنتِ متحمسة جداً للإسراع بالسفر؟ ألن ترغبي في متابعة عطلتك، لتستكشفي بلادي توسكانا؟».

وتمنت لوسي أن تقول له: لقد غيرتَ حياتي، لقد اكتشفت كيف يجب أن يكون الحب، لقد حطمت قلبي، وما الذي يمكن حصوله أكثر من هذا؟ إلاّ أن العبرة خنقتها.

لكنها بعد صمت قصير، تمكنت من أن تتكلم بشكل طبيعي.

ـ إنها فكرة لطيفة سنيور، لكنني يجب أن أعود، وكلما كان هذا أسرع كان أفضل.

قال بهدوء: «لقد لامست تمثال «إل بورسيلينو» لذا ستعودين في يوم ما إلى فيرينزي».

أجبرت شفتيها المتخشبتين على الابتسام: «أنا لا أؤمن بالخرافات، ولا بالقصص الخرافية، ولا بالنهايات السعيدة إلى الأبد، على أية حال هذا مكان رائع، وطريقة رائعة لقول وداعاً».

شيء ما لمع في العينين الكهرمانيتين وهو يرفع كوبه رداً.

ـ أنت سعيدة لمغادرتك توسكانا، حسن جداً.

وتفحصت بدقة الفقاقيع الغازية في مرطبها: «كل الأشياء الجيدة يجب أن تصل إلى نهايتها».

ـ وهل تعتبرين وجودك هنا شيئاً جيداً؟

ـ أعتقد أنني قمت بعمل جيد ومسؤول.

قال: «ليس هذا ما سألته».

قالت بصوت منخفض: «لم يكن الأمر سهلاً دائماً».

وبدا الغضب يحترق في صوته: «لا، بل كان «إل بوغانوري» المكان المطهر للملعونين».

أحنت رأسها: «أنا آسفة».

ـ لماذا تتأسفين في وقت أنا وحدي الملام؟ الموقف كله كان من صنع يديّ.

قالت بصوت أجش: «نحن، لا يجب أن نتحدث عن الأسف، ليس في يوم كهذا، في وقت كل شيء يبدو جميلاً».

ـ وأنت الأكثر جمالاً من كل شيء، آه لوسيا.

لم تجرؤ أن تمد يدها إليه، لكن أصابعه أطبقت على أصابعها، وشدها نحوه بإصرار وسيطرة لا تتحملان مجرد التفكير بالمقاومة. كلمات الرفض، والحفاظ على الذات، كانت تضج في رأسها. لكن، لا وقت لديها ولا ميل حقيقي لتستجيب لها.

احتضنت يده رأسها، وهو ينحني في أشعة الشمس المبهرة ليعانقها، وكانت استجابتها فورية، متوهجة وهي ترتجف. وبأذرع متشابكة، احتضنا بعضهما في هذيان حلو.

وهمس فالكون: «لم تمر لحظة من يومي، أو ليلتي، لم أفكر فيها بك، وأتذكرك، وأريدك، آه، ميابيلا، ميا كارازيما».

وخرجت آهة لا إرادية من حلقها وارتفع وجهها إليه بنظرة استعطاف لإزالة الحواجز بينهما.

أحست به فجأة، وبشكل لا يصدق، يتراجع عن عناقها، وسمعت صوته، كالغريب، يقول: «هذا جنون».

جلست راكعة، تتمسك بمقدمة قميصه، تشعر بتسارع ضربات قلبه على راحتيها: «جوليو؟ ما الخطب؟».

وكانت ضحكته دون مرح: «كل شيء تقريباً، هذا ما قد أقوله كولومبينا، ألا توافقين معي».

فسألته بخجل: «لقد قلت إنك تريدني».

رد بهدوء: «أجل، أريدك، وبجنون حتى أنني كنت على استعداد أن أنسى شرفي، وكل التزام آخر، بحيث كنت على وشك أن أنسى نفسي معك لفترة ما، ونتيجة لهذا قد أخسر روحي».

وبدت عليه المرارة الحزينة.

وارتجفت، ترد الدموع بالقوة، وتسترجع شجاعتها.

أمسك قبضتيها المشدودتين الصغيرتين وقبلهما: «سامحيني لوسيا، كان يجب أن أبقى في ڤيرنيز».

ثم رمى رأسه إلى الوراء ينظر إلى السماء، وعضلات عنقه مشدودة، وصوته أصبح فجأة قاسياً.

ـ كان يجب أن أعرف أنني لن أستطيع الثقة بنفسي.

ساد صمت، ثم نظر إليها مجدداً، وقال بهدوء: «حاولي أن لا تكرهيني، حاولي أن تفهمي لماذا يجب أن أكون قوياً، لمصلحتنا معاً».

وقفت لوسي على قدميها: «هناك دائماً طريق للرجوع».

وتمنت لو تقول له: إلا إذا كنت تحب شخصاً آخر كما أحبك، إلى ما أبعد من الكرامة، أو الشرف، أو التعقل، إلا إذا كنتَ مستعداً للتضحية بكل شيء لأجل المحبوب، كما أنا مستعدة لأن أفعل لأجلك.

إلا أنها رفعت ذقنها: «هل تعيدني إلى الڤيلا، أرجوك؟ أريد، توضيب أغراضي».

ورأته يحني رأسه بقبول صامت.

بدت رحلة العودة وكأنها لن تنتهي، كان جوليو ينظر أمامه، وجهه كقناع برونزي، وبصمت لم تجرؤ لوسي على اختراقه، حتى ولو وجدت الكلام.

وصلا الڤيلا. وما أن توقفت السيارة، حتى خرجت لوسي متعثرة، يائسة لتبتعد، لتكون لوحدها في وقت بدأت تفقد سيطرتها على نفسها.

لكن جوليو جاء خلفها، ليوقفها عند الباب، ويديرها لتواجهه، يداه كالحديد على كتفيها، وهو يقول بصوت حزين: «لا تكرهيني ميا كارا، فلن أتمكن من تحمل هذا. ما حصل هو من أجل الأفضل».

أحست أن ابتسامتها مثبتة بمسمار: «أجل، كل شيء للأفضل».

وتراجعت خطوة إلى الوراء، تمد يدها بتصميم: «وداعاً سنيور».

صاح بحدة: «آل دبابلو! إلى الجحيم بكل شيء، هذه ليست طريقة للفراق لوسيا». وبالرغم من احتجاجها المتصلب، أخذها بين ذراعيه، وضمها إليه ببطء وعمق.

أبعدها عنه لحظة: «آديو..».

ثم قال بهدوء شديد: «تذكري دائماً، كما سأتذكر».

ثم استدار ليسير مبتعداً، ووقفت لوسي جامدة، تحدق به تصغي إلى هدير محرك السيارة المكتوم، وتراقبه يقود السيارة مبتعداً بسرعة.

وعرفت أنها لم تشعر يوماً بمثل هذه الوحدة في حياتها كلها.

***

١٠ ـ نظرة، فابتسامة، فضياع...

كانت لوسي توضّب حقيبتها حين سمعت شخصاً يدق الباب، ودهشت لرؤية وجه خادمة الكونتيسة المتجهم، تنتظر بالباب.

يجب أن أتوقف عن وصفها بهذا، فاسمها آغنيس. وحاولت وضع ابتسامة ترحيب، لم تكن متبادلة. في الواقع، بدت المرأة الأكبر سناً أكثر تجهماً مما مضى وهي تشرح بكلمات حارة بالإيطالية، أن سنيورا رينالدي والولدين قد عادوا، وأن لوسي مطلوبة في الڤيلا.

ما أن وصلت لوسي إلى الڤيلا حتى وجدت فيامیتا في السالوتو مع ماركو، الذي كان يلعب بسيارته، ولم تكن إيميليا موجودة.

كان وجه ڤيامیتا مضيئاً: «لوسيا، أخبار رائعة، جوليو كان هنا، ينتظرنا حين عدنا».

أجبرت لوسي نفسها أن تبتسم: «أجل، أعرف، لقد قال لي، عن ماداليناً».

رددت فيامیتا ساخرة: «ماداليناً؟ لا دخل لها بهذا، سيرجيو سيعود، يقول جوليو إنه سيكون هنا غداً».

قالت لوسي: «هذا رائع».

ـ أوه، لا أستطيع الانتظار لأراه، في الصباح سأذهب إلى أي صالون تجميل في سيينا، وسأشتري شيئاً جديداً لأرتديه.

وغاصت فيامیتا في عالم كله قماش وألوان وتصاميم.

حين توقفت عن الكلام لتأخذ نفساً، قالت لوسي بلطف: «سآخذ

الولدين إلى الكاسيتا، لأغير لهما ملابسهما للعشاء، هل تلعب إيميليا في الخارج؟».

ـ تركتها في غرفتي، ترغب أن تجرب بعضاً من ملابسي.

تنهدت لوسي وصعدت إلى الطابق الأعلى، لتجد إيميليا تستعرض نفسها بفستان زهري، وحقيبة يد تتدلى من معصمها. وهي تقول باهتياج: «أنا برنسيسا».

انحنت لوسي وقاراً: «إذن حان وقت تغيير ثياب سموك للحفلة الرسمية هذه الليلة».

سمحت إيميليا لنفسها ببعض الغضب، واستسلمت بطاعة نادرة، وعادت مع لوسي إلى الكاسيتا.

كان الولدان يتمتعان بروح معنوية مرتفعة، يحلقان في السماء لخبر عودة والدهما، وكانت إيميليا مرتاحة بوضوح لأن أليسون تتحسن جيداً، وسرعان ما ستخرج من المستشفى.

ودست إيميليا يدها الصغيرة في يد لوسي: «إنني أفتقد إليها، ولا يعني هذا أنني لا أحبك لوسيا».

أما ماركو فضمها إليه بسرعة: «أجل، هل أسأل بابا إذا كان بالإمكان أن تأتي معنا لوسيا؟».

ابتسمت لوسي له: «هذا لطف منك، لكن علي العودة إلى انكلترا الآن، وستحل مادالينا مكاني».

بدت إيميليا مرتبكة قليلاً بتسارع الأمور، وقالت: «منذ استيقظت هذا الصباح، كل شيء تغير».

أكدت لوسي بحزم: «هذه هي الحياة».

يجب أن تنهي لوسي توضيب أشيائها في الصباح، ونظرت إلى الحقيبة نصف الممتلئة على سريرها وهي ترتدي ثوباً أسود بسيطاً، انتقته من الثياب التي لا تزال معلقة في الخزانة.

سارت نحو القيلا بنشاط عادي، يمسكان بيدها وهما يثرثران دون

توقف. لكن ما أن دخلوا الردهة، حتى عرفت لوسي أن هناك خطباً ما.

كانت تيريسا تقف بباب المطبخ، بوجهها الأبيض خوفاً، بينما من السالوتو كان يمكن سماع صوت الكونتيسا الحاد، يصخب صارخاً، يقاطعه صوت فيامیتا الهادىء.

سألت لوسي: «ما الذي يجري؟».

رفعت تيريسا كتفيها بهزة مختلطة من عدم الفهم وعدم التصديق، وعادت إلى داخل المطبخ.

وجدت لوسي نفسها تتحضر وهي تفتح باب السالوتو. فقد استدارت كلوديا فالكون كالنمرة وهي تلمح فريستها: «آه، السنيورة الطيبة جداً، الموثوقة جداً، وينترز، ربما تستطيع هي شرح هذا اللغز».

احتجت فيامیتا فوراً: «ماما، ليس من حقك».

ـ لي أي حق أختاره، نحن لا نعرف شيئاً عن هذه الفتاة التي ظهرت لنا من لا مكان، ليس لديها أوراق توصية، ولا شهادة من أي شخص.

ردت فيامیتا بتعاسة: «من جوليو».

لوحت الكونتيسة يدها بحركة مسرحية لتصرف النظر عن هذا الكلام: «من يعلم ماذا كانا لبعضهما، أو ما يمكن أن تكون هذه، هذه «البوتانا؟».

وعرفت لوسي ما دُعيت به لتوها، وتعالى لون الغضب إلى وجهها.

وقالت بصوت مختنق: «كيف تجرؤين؟».

ـ أوه، لا تلعبي دور البراءة سنيوريتا، هل تظنين أننا جميعاً عميان، وأننا لم نرَ طريقة نظرك إلى ابن زوجي..؟

سمعت لوسي صوتاً صغيراً متصلباً، ورأت الدموع تجري على خدي إيميليا.

ركعت على ركبة واحدة إلى جانب الطفلة: «كارا».

وانفجر ماركو بدوره في نحيب صاخب.

هذه المرة كان في صوت فيامیتا رنة فولاذ: «هذا يكفي».

سارت نحو الباب ونادت تيريسا، التي ظهرت بتأهب، وأخذت

الولدين بعيداً.

ثم راحت تشرح الموقف:

- لوسيا، لدينا مشكلة، شيء سيء حدث، وكلنا متكدرون قليلاً، الياقوتة، خاتم فالكون، اختفى من غرفة نوم أمي.

صمتت برهبة ظاهرة: «تفهمين أننا يجب أن نسأل، ولو أن الأمر صعب، عما إذا كنت رأيت الخاتم».

ساد صمت قصير مشحون، ثم تابعت فياميتا كلامها ببأس تقريباً: «أترين لوسيا، كنت هنا لوحدك اليوم، أنجيلا وڤيليب خرجا معاً بينما كانت أمي لا تزال هنا في غرفتها، ولم يعد أي منهما بعد».

صمت آخر: «ربما رأيت أحداً، غريباً، يمكن أن يكون دخل الڤيلا..».

قاطعتها الكونتيسة بنفاد صبر: «فياميتا، أنت حمقاء، لم يكن هناك أي غريب، لوسي كانت تتطفل في مكان ليس لها فيه شأن، ولقد رأتها أغنيس تخرج من غرفتي منذ أسبوع، واليوم قال لها جوليو إن مادالينا عائدة، وإن وقتها هنا شارف على نهايته، فقررت مكافأة نفسها لخدماتها المشكوك فيها، لم أعد أريد المزيد من النقاش، سأستدعي الشرطة».

نظرت لوسي إليها، وقالت ببطء: «تظنين أنني سرقت خاتم فالكون؟ لا بد أنك مجنونة».

فردت الكونيسة بغضب:

- لا، بل أنت المجنونة، جننت لأن ابن زوجي سيتزوج ولم يعد يريدك، وفكرت بالانتقام بأخذ خاتم العائلة، رمز خطوبته لابنة أختي.

استدارت لوسي إلى فياميتا: «سنيورا رينالدي، بالتأكيد لا تظنين..».

أصبح وجه فياميتا بائساً: «لم أعد أعرف بماذا أفكر، لكننا فتشنا هنا، وتصر ماما الآن أن تفتش الكاسيتا، وأنت لا تعترضين كما آمل».

- بالطبع لا..

وصمتت، قلقة بإحساس مفاجيء بالخوف، وفكرت ببطء، إيميليا. وتذكرت دموعها المفاجئة، إيميليا كانت تلعب لوحدها فوق، دور برنسيسا، هي يمكن أن تأخذ الخاتم مرة أخرى، أم لا تستطيع ذلك؟

وقطع تفكيرها صوت الكونتيسة.

بدا صوت الكونتيسة منتصراً: «يبدو أن السنيوريتا وينترز تفكر بالأمر مرة أخرى».

أنكرت لوسي بسرعة: «لا، أنا مستعدة تماماً لتفتيش أغراضي».

وفكرت بصمت: طالما ينتهي الأمر عند هذا، طالما لا يدخلان غرفة الولدين. لو أن إيميليا أخذت الخاتم، سأسترده منها وأعيده بطريقة ما إلى غرفة الكونتيسة، وأجعلهما تظنان أنهما لم تفتشاها جيداً.

- وهل ستفسرين لنا سبب وجودك في الغرفة ذلك اليوم؟

صمتت لوسي قليلاً: «كنت ألعب «الغميضة» مع الولدين».

وكانت ابتسامة الكونتيسة ساخرة: «آه، واليوم، ومرة أخرى سوف نبحث عما تخبئين».

صاحت فياميتا يائسة: «ماما، لا يجب قول مثل هذه الأشياء، قد يكون الخاتم ضائعاً ببساطة».

قالت الكونتيسة بازدراء: «كلام هراء، لقد سرق، وسرقته هذه الفتاة، وسوف نفتش الكاسيتا الآن».

أبقت لوسي صوتها هادئاً: «هل لي أن أطرح سؤالاً؟ كيف عرفت أن الكونت فالكون كلمني عن تركي العمل؟».

احتوى صوت كلوديا فالكون على رنة شر حادة: «لقد شاهدتكما أغنيس معاً، ومنذ كنتِ هنا سنيوريتا أبقت عينها ساهرة عليك، بناء على تعليماتي».

وتذكرت لوسي آخر عناق محموم مع جيوليو وأحست أنها تغوص في الوحل، وقالت بهدوء: «فهمت».

لكن، على الأقل لم أكن أشعر بعقدة الاضطهاد حين ظننت أن أحداً

يراقبني ويتجسس عليّ. وتذكرت مدى قلقها ذلك اليوم قرب بركة السباحة.

كانت أغنيس تنتظر مرافقتهم إلى الكاسيتا، إذن لن توسخ الكونتيسة يديها في بحث حقيقي، لاحظت لوسي هذا بغضب وهي تواجه نظرتها الخبيثة المتذاكية.

استدارت الكونتيسة إلى فياميتا: «هل وجودها ضروري فعلاً؟».

ـ لوسي ترغب في هذا، وأنا آسفة.

ـ ليس بنفس ما أنا آسفة.

وذهب الجميع إلى الكاسيتا.

لم تضع كلوديا فالكون لحظة في غرفة الجلوس، ولحقت بها أغنيس، وصعدتا مباشرة إلى غرفة نوم لوسي، وأشارت إلى الحقيبة المفتوحة على السرير: «ابحثي هنا».

وكأنها في حلم، راقبت لوسي أغنيس وهي تلتقط فستانها الأصفر وتنفض طياته، ووقعت لفافة ورقية صغيرة منه إلى الأرض، فانقضت الكونتيسة عليها صارخة بانتصار، فقد كانت اللفافة تضم الخاتم الذي يلمع كالدم.

وفكرت لوسي بدهشة، إنه الفستان الذي ارتديته إلى فيرنيز، غريب أن تختار إيميليا هذا المخبأ. لكن، على الأقل، كان لديها التعقل الكافي كي لا تخبئه بين أشيائها.

أعادت كلوديا فالكون الخاتم بتفاخر إلى أصبعها: «أنت حتى لست لصة ذكية سنيورينا».

ونظرت إلى فياميتا: «الآن سنستدعي الشرطة».

ـ لا.

وبدت فياميتا أكثر حزماً مما سمعته لوسي منها من قبل: «لن أسمح بهذا، لقد استعدت الخاتم ماما، فكوني قانعة، لوسيا ستغادر غداً، وصدقيني جوليو لن يرغب بفضيحة».

وكان في النظرة التي وجهتها إلى لوسي ألم، ولوم.

ـ هل لديك تفسير ما، لوسيا؟

فقالت في نفسها: أجل، لكن ليس ما أستطيع البوح به، إيميليا مجرد طفلة، لا تفهم أن عملها هذا له عواقب، وستكون هناك طريقة قاسية لتأديبها. في الواقع قد تكون كارثة، وماذا سيتحقق وأنا راحلة؟ ولن أرى أياً من هؤلاء مرة أخرى.

ثم رفعت ذقنها، وقالت بهدوء: «لا أستطيع تقديم عذر لوجود الخاتم في حقيبتي سنيورا، كل ما أستطيع قوله أنني لم أضعه هنا».

تنهدت فياميتا من أعماقها: «إذن، ما من مزيد يقال، سأرتب أمر تقديم وجبة طعام لك هنا هذا المساء، وسيوصلك فرانكو غداً إلى مونتيفيرنو، حيث يمكن لكِ ركوب باص إلى پيزا، ولسوف تفهمين عدم رغبتي بأن يكون لك أي اتصال بولديّ، وبإمكانهم النوم في الڤيلا هذه الليلة».

بعد صدمة النصف ساعة الأخيرة وإهاناتها، شعرت لوسي بألم كبير.

وهي تتحرك كإنسان آلي، أكملت لوسي توضيب أشيائها، ومما قالته فياميتا، كان واضحاً أنها تُطرد دون كلمة شكر وهي تترك وحدها لتشق طريقها إلى موطنها بأفضل طريقة تستطيعها، وعدّت ما معها من مال، وقامت بحسابات سريعة في رأسها، ولم ترتح لحساباتها، إذ لا تستطيع إبدال تذكرة العودة المؤجلة إلى رحلة معجلة، لذا ستواجه مشاكل حقيقية.

حين جاءتها تيريسا الحزينة بصينية العشاء، قوّت نفسها لتعطيها رسالة إلى فيليب.

تجرجرت الأمسية إلى ما لا نهاية، وكانت على وشك الاستسلام والذهاب إلى النوم حين ظهر فيليب متردداً عند الباب.

وكانت تحيته أن قال: «أنت جريئة جداً لترسلي ورائي، سيعتقدون أننا في هذا معاً..».

شهقت لوسي: «لا يمكنك تصديق أنني سرقت الخاتم».

- حسن جداً، أحد ما سرقه، ولو أن أنجيلا تعتقد أن هذا عمل حقود، وليس سرقة، لأنك تريدين جوليو فالكون لنفسك.

قالت ببرود: «أنا واثقة أن هذه هي الطريقة الملتوية التي يمكنها التفكير بها، لكن آراءها لا تهمني، الأمر فقط..».

وأخذت نفساً عميقاً: «.. إنني بحاجة لأستقرض منك بعض المال، لأعود إلى بريطانيا».

- وتريدينني أن أعطيك المال؟ في وقت قمت بما في وسعك لصدّي خلال الأسبوع المنصرم؟

- قرض مؤقت، هذا كل شيء، صدقني فيليب، لم أكن أطلب منك لو لم أكن يائسة، وسأعيد المبلغ لك حال عودتك.

قال بلهجة ساخرة: «أو.. يمكنك أن تدفعي الآن، يا للطف، فما رأيك لوسي؟ من أجل أيامنا الماضية؟».

انزلقت يده على كتفها بشكل بغيض إلى الأسفل، مما جعلها تدرك مصدومة، أنه لم يكن يمزح.

تراجعت إلى الوراء، وقالت من بين أسنانها: «أفضل العودة سيراً».

رد بصوت قاسٍ: «حسن جداً، أنت لست محظوظة، أليس كذلك لوسي؟ رجلان في حياتك، وخسرتهما معاً أمام أنجيلا، لا عجب أنها الآن تضحك منتصرة».

كان إبريق العصير لا يزال على صينية العشاء الذي لم تمسه، وقالت لوسي بلطف: «إذن، سنعطيها سبباً آخر للضحك».

ودلقت العصير عليه، فجمد، كان السائل الأحمر ينقط من أنفه وذقنه، ليمتصه قميصه الحريري الفاخر، ثم قال بوضوح حاقد: «عاهرة!».

وسار مبتعداً بقدر ما استطاع من وقار.

ما إن طلع النهار، حتى وصل فرانكو، وكله اعتذار، إلى الباب وبدا

من الواضح أن العائلة لن تستطيع الانتظار لتراها ترحل، وعضت لوسي شفتها، بينما كانت حقيبتها توضع في السيارة، وسارت برحلة مربكة محرجة، وأحست بالسرور لبلوغهما مونتيفيرنو.

دُهشت لوسي حين وجدت أن يدها تهتز بمصافحة فرانكو بحرارة وهو يقول: : «تي كريدو سنيوريتا، أنا أصدقك، وتيريسا كذلك».

كانت الدموع في عينيها وهو يقود السيارة مبتعداً، وكادت تبكي مجدداً حين فكرت كم سيطول انتظارها للباص إلى پيزا، لأنها كانت تتضور جوعاً، تشعر بطول الوقت، واشترت فنجان قهوة وكعكة بالسكر في مقهى قرب موقف الباص، ثم جلست على المقعد تنتظر.

حاولت القراءة، لكنها لم تستطع التركيز. كان رأسها يدور بأفكار مزعجة، معظمها تعيس.

تلوى الغثيان في معدتها وهي تحاول تصور ما يمكن أن يقال لجيوليو، وبماذا سيفكر وكيف أنه دون شك سيدينها دون سماعه دفاعها.

مع ذلك، فهو الوحيد الذي إذا عرف الحقيقة يمكن أن يفهم ما فعلت إيميليا.

ورأت باصاً يتوقف، وقد كتب على لوحة اتجاهه «فيرنيز».

وقفت لوسي، وهي ترتجف وفكرت: يجب أن أقول له، ولأجل إيميليا، يجب أن يعرف الحقيقة كي يستطيع حمايتها، وإلا فسيحدث هذا تكراراً، ولسوف تضعها زوجة أبيه في مؤسسة ظالمة، حيث ستدفع الثمن طوال حياتها.

كانت رحلة الباص سريعة ومباشرة، لكن لوسي كانت تنتظر بنفاد صبر، إلى أن وصلت إلى فلورنس. وتوقف الباص قرب محطة القطار حيث تركت لوسي حقيبتها وديعة في قسم حفظ الأمتعة، ثم زارت مكتب سياحة قريب للسؤال عن مكان وجود مصرف فالكون.

كان المكان بناية جديدة نسبياً، في شارع مزدحم متفرع من «پيازا ديلا ريپابليكا» ووجدت لوسي نفسها مضطرة لمناورة أحد رجال الأمن

وراء المدخل الزجاجي الضخم.

إصرارها على مقابلة شخصية مع الكونت جوليو فالكون، قُبل بأدب، لكن بارتياب. أخيراً واجهت سكرتيرة متوسطة العمر شرحت لها بلباقة أن الكونت فالكون غير موجود.

فركت لوسي يديها: «إذن، هل تستطيعين إيصال رسالة له..».

ـ أنا آسفة سنيوريتا، لن يكون هنا لبقية اليوم، لقد استدعي في وقت مبكر لأمر عائلي طارىء.

وأدركت لوسي السبب الطارىء هذا.

حسن جداً، لقد حاولت، وحاولت مواساة نفسها وهي تعود إلى المحطة لتجد أنها فقدت وسيلة نقل أخرى إلى پيزا، وأنها مضطرة للانتظار ساعة إضافية.

وقررت أنها ليست على عجلة من أمرها، وسارت ببطء من المحطة لتعود إلى المدينة، مدينة جوليو، تريد أن تراها من خلال عينيه، تتمنى معرفتها كما يعرفها هو. ستعاود السير في الطريق التي سلكاها معاً خلال الوقت القصير الذي قضياه معاً، وهذه آخر فرصة لها.

في الشارع الصغير قرب دومو، كان مطعم جيوفاني مشغولاً استعداداً ليوم العمل، وتمنت لوسي لو تستطيع الأكل هناك، لكن الحاجة إلى توفير المال في حال حدوث مشاكل في المطار، بدا أكثر أهمية، فاكتفت بالتنهد، قبل أن تستدير إلى الشارع الطويل الذي يقود إلى بلازا ديلاسينوريا.

في «الميركانونوڤو» الملاصق كان إل بورسيلينو، الخنزير البري البرونزي، يقبع ضاحكاً بلطف.

وقالت له لوسي: لقد عدتُ، لكن ليس بالطريقة التي أريدها، ولن أعود مرة أخرى، ورفعت يداً تمسح أنفه اللماع في وداع نهائي.

***

كانت پيزا تتحمص تحت أشعة شمس بعد الظهر حين وصلت لوسي أخيراً إلى مطار غاليليو. ووضعت حقيبتها في عربة، واتجهت إلى مبنى المغادرة، تراجع في فكرها ما يجب أن تقول.

مع انزلاق أبواب المدخل لتبتعد عن بعضها، وتسمح لها بالدخول كان أول من شاهدت، والوحيد الذي رأته.

كان يقف أمامها مباشرة، يداه على وركيه ووجهه متعب وجاد، وقد اختفى البريق الذهبي لضحكته كما فقدت عيناه لمعانهما، وتمنت لو تتخلى عن سنة من عمرها كي تراه يبتسم.

خطا إلى الأمام، ووضع يداً على العربة يوقف تقدمها، وقال بهدوء: «أنتِ، أنتِ هنا أخيراً».

أحست لوسي بقلبها يتراقص، وقالت بصوت أجش: «هل تريد اعتقالي؟ أم تتأكد من أنني سأغادر البلاد؟».

ـ لا هذا ولا ذاك لوسيا، يجب أن تعرفي.

لم تعد واثقة من أي شيء، لكن، هناك شيء واحد يجب توضيحه.

رفعت رأسها: «جوليو، أقسم لك أنني لم أفعل شيئاً، لم آخذ الخاتم، لكنني أخشى أنني أعرف من فعل هذا».

ـ وأنا أعرفه.

خطوط القلق حول فمه ازدادت عمقاً: «وأنا أكثر أسفاً مما أستطيع قوله».

أرادت أن تمسك رأسه بين يديها، لتنفّس عنه الضغط العصبي وتزيل تعاسته إلاّ أنها قالت:

ـ لا تكن قاسياً عليها، أرجوك، إنها تعيسة مشوشة، وأظنها كانت تفعل هذا لأجلك.

سأل بجدية: «أنت تستطيعين قول هذا؟ لو استطاعت تنفيذ ما تريد لكنتِ الآن في السجن».

ارتجفت لوسي: «إنها لا تفكر بالأشياء بشكل جيد، وأنا واثقة أنها لم

تكن تنوي. . ».

ـ أنتِ مخطئة لوسيا، إنها تتمنى لو تدمرك، كان علي وسيرجيو الاصغاء إلى كل شيء، إلى كل فكرة خاطئة خطرت ببالها يوماً.

وأخذ نفساً عميقاً: «إنها حقيرة».

تحركت لوسي بحدة للإنكار: «حبيبي، لا تقل هذا، إنها مجرد طفلة، ولا تدرك. . ».

رفع حاجبيه: «طفلة؟ أشك كثيراً أن كلوديا كانت يوماً طفلة».

وصاحت لوسي: «لكنها ليست هي التي سرقت الخاتم؟».

أحنى جوليو رأسه: «سي، بل أعطته لخادمتها القذرة لتضعه بين أغراضك، بالتأكيد كان يجب أن تعرفي؟».

قالت وقد أخذتها الدهشة: «لا، أنا، ظننت أنها إيميليا».

ـ إيميليا؟ لكن أي سبب معقول يدفع إيميليا لذلك. .

رفعت لوسي نظرها إليه: «سمعتك تتجادل مع زوجة أبيك حول الخاتم، وأرادت مساعدتك. لقد أخذته مرة من قبل، كي تعيده إليك، وعرفت ما يمكن للكونتيسة فالكون أن تفعل إذا اكتشفت الأمر، لذا أعدته بنفسي إلى غرفة الكونتيسة، لكن أغنيس رأتني، كما يبدو».

قال متجهماً: «هذا هو الأمر إذن، كانت تتجسس عليك منذ البداية، ورأتني أعانقك بالأمس. حين قدمت تقريرها لكلوديا، دبرتا هذه المؤامرة للخلاص منك، على أمل عودتك إلى انكلترا مهانة ذليلة قبل أن أسمع بالأمر».

وشهقت لوسي: «هذا لا يصدق».

تنهد جوليو: «ليس إذا كنت تعرفين كلوديا جيداً».

ثم نظر حولهما، يستعيد سلطته وهو يسجل النظرات الفضولية الموجهة إليهما.

ـ لا يمكن أن نبقى هنا، سنأخذ حقيبتك إلى السيارة، ونجد مكاناً نتكلم فيه على حدة.

ترددت لوسي، بوجه مضطرب: «يجب أن أهتم ببطاقتي، يجب أن أغادر، وأعود إلى بلادي، لكنني احتجت أن تعرف أنني لست سارقة».

قال بصوت حنون جداً: «اديونا، حمقاء صغيرة، حمامة بريئة صغيرة، أتظنين حقاً أنني سأسمح لك بالرحيل؟».

احتجت مع بدء تحريكه للعربة للخروج من مبنى المطار: «لا يمكنك إبقائي هنا، ليس لك الحق، ليس وأنت ستتزوج أنجيلا».

لم يتوقف في سيره: «لنكن واضحين، أنا لن أتزوج أنجيلا، لا الآن ولا في المستقبل، أنا لا أحب أنجيلا، ولم أحبها يوماً، وقد باتت الآن تعرف ذلك هي وكلوديا وبشكل نهائي».

اهتز صوت لوسي: «لا تريد أنجيلا؟».

قال بلطف: «أنا أحبك لوسيا، وفي أسرع وقت حين تتاح لنا فرصة خلوة لوحدنا سأطلب منك أن تكوني زوجتي، لكن لا يُعقل أن أطلب منك الزواج ونحن واقفين وسط موقف السيارات».

أحست لوسي بالبلاهة. ولحقت به بخضوع إلى السيارة.

قال وهو يجلس وراء المقود: «إذن، ها نحن عدنا إلى حيث بدأ كل شيء».

مد يده إلى داخل جيبه وأخرج خاتم فالكون.

ـ أعطني يدك كاراسيمو.

وأطاعت دون تردد، ووضع الياقوتة المتألقة في إصبعها، وقال بنعومة: «والآن، حبي، زوجتي، هل تصدقينني؟».

وعانقها بعمق وحنان، ثم بحب جارف وراح رأسها وقلبها يدوران.

حين استطاعت الكلام، قالت مقطوعة الأنفاس: «لكنك أبعدتني عنك، قلتَ إن ملامستي هي تلويث شرف لك، وإن لك التزامات وواجبات أخرى».

ـ ليس أنا، ميا بيلا، بل أنت، أو هكذا ظننتُ، اعتقدتُ أنكِ لا زلتِ تحبين فيليب الذي لا قيمة له، لقد وجدت صورته ممزقة في غرفتك منذ

أول يوم لك في الڤيلا، كما عرفتُ أنه الرجل الجديد في حياة أنجيلا.

ـ لكن كيف عرفت؟ أنت لم تلتقه من قبل؟

هز جوليو كتفيه: «أنجيلا ستكون امرأة ثرية جداً، ووالدها حذر من أي رجل تخرج معه، لذا أجرى تحريات خاصة حول خلفيته الاجتماعية والعائلية، لكنني لم أتأثر بما قرأت عنه».

صمت ثم قال: «حين ذهبت إلى لوشيون وطرحت الأسئلة على صديقاتك أكدن لي أن فيليب تركك من أجل امرأة أخرى، وأنك مدمرة الأعصاب، مكسورة الفؤاد، وآخر شيء كنت أحسب حسابه هو وصول أنجيلا مع فيليب».

عاد إلى الصمت مفكراً ثم اعترف: «لم أعد أستطيع التفكير بشيء سوى كيف ستجرحك رؤيته وكم أريد حمايتك من هذا الجرح، وكان هذا حين شعرت نحوك بأكثر من تجاذب عابر، حين أدركت أنني وقعت في حبك، منذ أول لحظة عانقتك بها».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على فم لوسي: «وأعتقد أن هذا كان البداية لي أيضاً، كارو جوليو».

رفع يدها التي تحمل خاتمه وقبلها: «كم كنا أحمقين، وكم هدرنا من وقت».

وتنهد.

ـ لكن، أترين، كنتُ قد اتخذت قراراً لو أن فيليب..

ولفظ الاسم باشمئزاز.

ـ .. كان هو الرجل الذي تريدينه حقاً، فلن أقف في طريقك، مهما كنتُ أريدك لنفسي.

وأكمل بجدية وقساوة: «لم تكن مشكلة كبيرة، فأنا أعرف أنجيلا جيداً، أعرف كم من السهل أن تغير اهتماماتها. لذا، أعترف، لقد وفرت لها التسلية المطلوبة».

ـ لكن كيف يمكن أن تفكر أنني لا زلت أريد فيليب؟

وتصاعد اللون إلى وجهها: «وأنت ترى كيف كنت أستجيب لك، وأتصرف معك».

تلّمس خدها المحمر، بيد لطيفة: «التجاذب الجسدي مخادع جداً لوسيا، لقد حاولت جاهداً إقناع نفسي أنك ملك لشخص آخر، وأن لا حق لي أن أغويك، لأبعدك عن حبك الحقيقي».

هز رأسه: «حاولت يائساً كذلك الابتعاد عنك، وفي كل مرة كنت أفشل فيها، كنت أحتقر نفسي أكثر، ولهذا السبب عدتُ إلى ڤيرنيز، لأنني لم أعد أثق بنفسي وأنا بقربك».

احتجت لوسي: «لكنني لم أعط فيليب أي تشجيع، والواقع أنني أدركت ما أن رحل، أن علاقتنا لم تكن تتجه إلى أي مكان واضح، وأنه قدم لنا معاً خدمة بانسحابه. أعترف أنني صدمتُ في البداية، لكن كرامتي جرحت أكثر بكثير من قلبي».

ـ لكن الفتاة، نينا، كانت واثقة جداً، قالت إنك امرأة لرجل واحد، وإنك كنت قريبة من الانهيار لأجله.

عضت لوسي شفتها: «نينا وأنا نعمل في شركة واحدة، لكننا لم نكن يوماً صديقتين مقربتين، ولم أفض لها يوماً بشيء، وأعتقد أنها خمنّت كل هذا».

تأوه جوليو: «كان يجب أن أسألك عن مشاعرك، لكنني لم أجرؤ».

لامست لوسي النار القرمزية لخاتم فالكون، بيد لطيفة: «من المؤكد أن شيئاً ما حدث ليغير رأيك؟».

عاد لمعان الضحك المألوف إلى العينين الكهرمانيتين: «آه، أجل، لقد أخبرتني فيامیتا بعض الأشياء عنه ليلة أمس. ومما لاحظته لم يكن يتحدث عن الحب، كولومبينا، هذا إضافة إلى واقع أنه سمح لك بالسفر لوحدك، وكان متلهفاً لإبعاد نفسه عن اللصة المزعومة، إضافة إلى ملاحظاته والتي ليست في محلها عن برودتك، ويجب أن يشكر سيرجيو لأنني لم أحطم فكه، لكن حين غادرت، كان هو وأنجيلا مشغولين

باتهامات متبادلة، لذا افترضت أن هذا عقاب يكفي».

ارتجف فمها بابتسامة: «بكل تأكيد، لكن كيف عرفت أمر كلوديا؟».

ـ يجب أن نشكر سيرجيو على هذا أيضاً، لقد وصل إلى الڤيلا في وقت مبكر هذا الصباح، بعد رحيلك مباشرة، ووجد المكان يصخب بالضجيج، ولم يلزمه وقت طويل ليدرك أن إيميليا مضطربة، فقد سمعت جزءاً من الحديث بين كلوديا وخادمتها أغنيس، ولو أنها لم تفهم تماماً ما سمعت إلا أنها أخبرت سيرجيو ما يكفي لجعله يرتاب، وفكر أنه من الأفضل أن يرسل بطلبي، حينها استطعنا التوصل إلى الحقيقة من أغنيس، وفي النهاية من كلوديا نفسها.

صمت قليلاً وهو منجهم ثم أضاف: «وأمرتها بتوضب أشيائها ومغادرة الڤيلا فوراً، لكن ليس قبل قولي لها إن كل مؤامراتها فاشلة، وإنني لا أريد رؤيتها مرة أخرى بإرادتي، ثم تركتُ المسكين سيرجيو ليرتب الفوضى، وجئتُ إلى پيزا لأجدك، ولقد أمضيتُ معظم اليوم هنا أبحث عنك».

تنهدت لوسي: «وأنا كنت في ڤيرنيز أبحث عنك، لم أستطع تحمل مغادرتي دون رؤيتك مجدداً ومعرفتك الحقيقة».

قال بنعومة: «أوه، كنت ستريني مجدداً. حتى ولو ذهبتِ مع فيليب لكنتُ لحقت بك، وحاولت جعلك تغيرين رأيك. أترين كارا، لا أستطيع العيش دونك».

نظرت لوسي إليه من تحت رموشها، وهي تشعر فجأة بالخجل: «لكن كل شيء حدث بسرعة».

قال: «حدث مثله مع أبي وأمي».

وبخبث وحنان تذكر قائلاً: «نظرة، فابتسامة، وضاعا».

أرجع خصلة من شعر لوسي إلى الوراء عن جبهتها: «والآن كولومبينا، هل تؤمنين بقوة القدر؟».

قالت هامسة: «أعتقد أنه يجب عليّ ذلك».

هز جوليو رأسه: «إلى أن نصل الڤيلا، سيكون الجميع قد رحلوا، سيرجيو سيأخذ عائلته بعيداً، لذا ستقابلينه فيما بعد، حين تكون فيامیتا أقل حزناً، لذا، أنت وأنا، ميابيلا سيكون لنا بعض الوقت لوحدنا، على الأقل لنضع الخطط لحفل الزواج».

صمت، ثم قال: «لكن الآن هناك شيء تقولينه لي، كما أعتقد».

قطبت لوسي: «حقاً؟ يبدو لي أننا أوضحنا كل شيء».

وتركزت العينان الكهرمانيتان على وجهها، تلمعان بالحنان والرغبة: «ليس تماماً، فأنت لم تقولي لي بعد، لوسيا ميا، أنك تحبينني».

لفت لوسي ذراعيها حول عنقه وشدته إليها وبهمس حنون قالت:

ـ أعتقد، أنني سأقضي بقية حياتي أحبك، مي آموري.

***